فن التصوير بين صدق العين ومهارة الاصابع

بقلم اندره فرميجيه   ترجمة الياس خليل زخريا

نقلنا ، لمتحف نقولا سرسق ببيروت ، من الفرنسية الى العربية هذه التوطئة التحليلية في الفن التصويري الحديث التي قدم بها الكاتب الفرنسي اندره فرميجيه ، من النقاد الفرنسيين ، ورئيس اللجنة التحكيمية ، لوحات معرض الخريف الثامن (٣ – ١٩٦٩/١/٢٦) في لبنان .

يبدو ان فن التصوير يجتاز اليوم ، وفي جميع انحاء العالم ، وبعد السنوات المتفائلة والشديدة الخصب التي تلت الحرب ، مرحلة متأزمة . لا لقلة اربابه ، ولا لقلة المواهب ، او المهارة ، ولكن يظهر كأن كل شيء قد قيل ، وليس من شيء يمكن ان يبتكر بعد .

فهوس الوصول الى مراتب الطليعة ، واللجوء المستمر الى الاثارة ، الى استعمال الاساليب التكنية المضللة او الفاضحة ، والارادة الدائمة الى المفاجأة والمهاجمة ، **كل ذلك قد أدى الى احداث الملل في نفسية جمهور هو منذ زمن** بعيد كأنه آخذ على نفسه ان لا يفهم ، وأن لا يحب الا من طرف العين ، استهانة ، واستخفافا .

حتى الفضيحة نفسها أصبحت مستحيلة ، وطغيان الازياء ، والتنظيم التجاري للسوق ، والمضاربة في الانتاج الفني ، والتطلع نحو الصفقات النفعية ، قد حولت الفن التصويري ، في كثير من الحالات ، ورغم ارادة المصورين ، الى ان لا يكون سوى مادة استهلاك .

« يقذفون » بالمصور في دعم شديد من الاعلان والدعاية ، كأنه سيارة او سلعة ، وذلك لينبذوه بعيدا عندما يخف فيه رونق الجديد ، ويأخذ تيار الزي في التحول . والنتيجة هي أن الاساليب الفنية التي كانت تدوم أجيالا في ما مضى ، اصبحت اليوم لا تدوم اكثر من « شتاءين » .

ثم لمن نصور ؟ للعموم ام للافراد ؟؟ للدولة ؟ للجماعات، لحماة الفن ، لاصحاب المجموعات ؟؟ ومهما كان في وسع الدولة أن تعمل ، فانه لمن الواضح انها لا يمكنها – كما انه لا يتوجب عليها – القيام بكل شيء .

ليس في استطاعة الدولة ان تأخذ ، كليا ، الفن على عاتقها ، اذ ليس لديها الامكانيات المادية لتولي هذا العمل ، خاصة لان سياسة كهذه تؤدي حتما الى خلق فن رسمي مراقب في مواضيعه ، واساليبه ، وفي مثله الاعلى . وحماة الفن يجرون الى هوايتهم جرا ، أما أصحاب المجموعات فان الاسعار المذهلة التي بلغتها اللوحات الحديثة قد ضاءلت عددهم بصورة بارزة ، واقتصر هذا العدد على بعض أفراد من فئة اجتماعية خاصة لا تشوبها شائبة ، غير انها لا تؤلف ، بالمعنى الصحيح ، جمهورا فنيا .

أصبح فن التصوير عمل جماعات صغيرة ، عمل ملمين ، واحيانا عمل رابطات ، يعبر بلغة هي غير مفهومة لدى الاغلبية ، وهو يود ان يتحرر من المال ، من الطبقة البورجوازية ، ولكننا نعلم جيدا ان اللوحات ، الاشد عنفا ، الصارخة الثائرة هي – في الغالب – وفي اوروبا كما في اميركا – اللوحات التي تصل بأسرع ما يكون الى تزيين الدور الفخمة .

لقد كان هذا ، دائما ، محط الفن التصويري الا في أواخر الجيل التاسع عشر وأوائل الجيل العشرين .

وهل في ذلك ما يدعو الى ان نيأس وان نتكلم كما يتكلم بعضهم عن « موت الفن » و «اضمحلال فن التصوير» .

انا لا اعتقد . . . ولسنا ندري ما يكون عليه الغد ،وصعب هو التكهن في حوادث التاريخ قبل وقوعها ، وان تاريخ الفن ، وتاريخ الفن التصويري خاصة ، يتحول الى سلسلة يبرز فيها أشخاص متفوقون يبتدعون تعبيرا جديدا ، ويخترعون نوعا مستحدثا طريفا للعلاقة مع الطبيعة .

قال جيد : « سيكون خلاص العالم على يد بضعة افراد » وهؤلاء الافراد القلائل لا يخلقون خلقا اصطناعيا .

علينا ان لا نفتش عما يقتضي ان يكون عليه فن التصوير . فالمنازعة ما بين التجريد والتشخيص هي من شأن اللاهوتيين وليس لها من علاقة بالفن التصويري الحديث .

وسواء صورنا باقة من الازهار او باقة من الاشكال فأن ما يؤخذ بعين الاعتبار هو مدى احساس الفنان ، هو صدق عينه ، وصدق يده ، وهذا التوازن ، الصعب المنال العجيب عند تحقيقه ، القائم ما بين صلابة المعرفة والليونة ، بين صفاء القلب والانفعال .

ان هذا التوازن ، ربما وجدناه ، من الان فصاعدا ، في غير المدن التي كانت المراكز العليا لفن التصوير في القرن العشرين . ولم لا يكون في بيروت ..

اني أحمل على كل حال انطباعا مشجعا عن زيارتي لمعرض الخريف الذي ينظمه متحف سرسق .

الياس خليل زخريا

عارف العارف ـ عبد القادر يوسف حسن البحيري

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ عارف العارف

حفلت فلسطين بطائفة من مشاهير المؤرخين العرب الذين اغنوا خزانة التاريخ العربي بمؤلفاتهم ، وحظيت بيت المقدس بصفوة من أبنائها الاعلام الذين احبوا علم التاريخ فاوغلوا في مساربه ، وغاصوا في مسالكه ، وصنفوا مروياته وحوادثه احسن تصنيف ، وكان في طليعة هذه الصفوة المختارة « عارف العارف » .

والحديث عن « عارف العارف » ، كمؤرخ ثقة أسدى للخزانة العربية أجل الخدمات ، وزودها بفرائد المؤلفات ، حديث مفر لذيذ ، وحسب هذا المؤرخ المقدسي انه أرخ بمفرده اخبار النكبة الفلسطينية الاولى في ستة اجزاء ، ودون اخبارها ، وكشف عن أسرارها في موسوعة جاءت خير ما كتب عن نكبة العرب في القرن العشرين .

ولد « عارف » في بيت المقدس عام ١٨٩٢ واكمل فيها دراسته الابتدائية ، وتطلعا الى مستقبل افضل قصد هذا العصامي استانبول عاصمة الخلافة وأتم دراسته الثانوية في احدى مدارسها وانتسب لكلية الآداب في جامعة استانبول ونال الشهادة عام ١٩١٣ . وليتغلب على نفقات العيش وأكلاف الحياة زاول الصحافة ليلا في جريدة « بيام » التركية .

وعندما اقدم نفر من الشبان العرب الاحرار المقيمين في استانبول، على تأسيس « المنتدى الادبي » انتخب « عارف » عضوا فيه ، وبعد ان احرز شهادة الدكتوراه من جامعة استانبول عين موظفا في قلم الترجمة التابع لوزارة الخارجية التركية . لكن نشوب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) افضى به الى دخول الكلية العسكرية والتدرب فيها مع رهط من زملائه الجامعيين ، على فنون القتال . وبعد ان تخرج برتبة ضابط ارسل الى القفقاس للاشتراك مع الجيش العثماني في الحرب القائمة بينه وبين الجيش الروسي ، على مقربة من « ارض الروم » ونشبت معركة ضارية بين الجيشين وقد اسفرت عن ابادة الفرقة التركية التي كان « عارف » يعمل في صفوفها ولم ينج من أفرادها سوى احد عشر شخصا كان المترجم له واحدا منهم .

وفي عام ١٩١٥ أسره الروس مع رهط من الضباط العرب وبعثوا بهم الى معتقل أقاموه للاسرى الاتراك والالمان والنمساويين بالقرب من مدينة « كراس نويا رسك » الواقعة على شاطىء نهر يني ساي وامضى هناك مدة ثلاث سنوات (١٩١٥ ـ ١٩١٧) لم يصرفها في البكاء والتحسر على ما يبلو في أسره من ضنك وحرمان بل اقبل على تعلم اللغة الروسية من الضباط والجنود الروس الذين كانوا يخفرون ذلك المعتقل ، كما تعلم اللغة الالمانية من الاسرى الالمان والنمساويين الذين كانوا أسرى معه ، وتمكن وهو معتقل من ترجمة كتاب Das Welt - Raetzel الالماني لمؤلفه الفيلسوف الالماني الشهير ارنست هيجل واصدر جريدة عربية هزلية بخطه .

وفي آخر سني أسره تناهت اليه انباء عن قيام الثورة العربية التي اعلنها شريف مكة الحسين بن علي على الترك فاقنع « عارف » واحدا وعشرين اسيرا عربيا بالهرب معه من المعتقل للانضمام الى صفوف الثورة العربية الكبرى ، وسلكوا طريق منشوريا ـ اليابان ـ الصين ـ الهند ـ مصر عن طريق البحر الاحمر ، وخلال هذه الرحلة الشاقة الطويلة كانت الهدنة قد اعلنت ، ونامة الحرب الضروس قد خفتت وعقدت الهدنة .

وبعد غياب طويل قصد « عارف » مسقط رأسه لعله يجده رافلا في مطارف الحرية والاستقلال ، تلك الحرية التي كان يصبو لها كل عربي ، وذلك الاستقلال الذي كان يدعو اليه كل مؤمن بعروبته ، لكنه بدلا من ان يرى موطنه ناعما بهاتين الامنيتين رأى ظلما يحيق بامته ، وهوانا يسود شعبه ، وعذابا يصب جاماته على وطن قدسه الله واختاره مهدا للرسل والابرار والمصلحين ... ورأى الرذيلة تصرع الفضيلة ، وكفة الشر ترجح على كفة الخير ، ودعاة المسيحية في الغرب يؤلبون « اليهودي التائه » على قهر فلسطين العربية واذلال شعبها وتهويد مقدساتها وطمس معالمها .. فلم ير « عارف » بدا من حمل السلاح ... وكان سلاحه هذه المرة قلمه ... ومسرح نضاله جريدة اسماها « سورية الجنوبية » واصدرها في بيت المقدس ، وصدر العدد الاول منها يوم ٨ ايلول ١٩١٩ بالاشتراك مع زميله حسن البديري ، وقد حملا فيها على الانتداب والصهيونية وفضحا النوايا الخبيثة وكشفا عما يبيتان لفلسطين من شر مستطير . وفي كثير من الايام كانت هذه الصحيفة الحرة تصادرها السلطات البريطانية ، وكان صاحباها عرضة للسجن والمراقبة الى ان نشبت اول ثورة بين العرب واليهود في بيت المقدس صباح ٤ نيسان ١٩٢٠ فاعتبر الانكليز «عارفا» محرضا على تقتيل اليهود فاودعوه السجن ، لكنه بعد ثلاثة ايام لاذ بالهرب الى مدينة الكرك بالاردن سالكا طريق البحر الميت ، ورغم المحاولات التي بذلها الانكليز للقبض عليه لم يوفقوا الى ذلك . ولينجو « عارف » من غدر المستعمر قصد دمشق ليمثل القدس في « المؤتمر السوري » الذي اعلن استقلال سورية الطبيعية من طورسينا الى رفح ونادى بفيصل الاول ملكا عليها . وخلال هذه الفترة نظرت المحكمة العسكرية التي الفتها السلطات البريطانية في بيت المقدس للبحث في أسباب الثورة الفلسطينية الاولى فاصدرت أحكاما بادانة عدد من الوطنيين وكان عارف العارف في عدادهم وقد حكمت عليه بالاعدام ثم انزلت الحكم الى السجن عشر سنوات .

ولما تأسست حكومة مدنية في فلسطين وتسلم زمام امورها السر هربرت صموئيل اول مندوب سام جنح هذا الى سياسة اللين والمهادنة فعفا عن جميع المحكومين ، وهم في عرفه « مجرمون سياسيون » ، باستثناء عارف العارف وسماحة الحاج محمد امين الحسيني ما لم يعودا الى فلسطين مستسلمين للسلطة البريطانية غير انهما رفضا العودة المشروطة ، وظل « عارف » في دمشق يعمل حرا طليقا ويشرح ظلامة وطنه وأسس مع نفر من اخوانه الفلسطينيين جمعية سياسية اسموها « الجمعية العربية الفلسطينية » وانتخب « عارف » سكرتيرا لها الى ان احتلت فرنسا سورية بقيادة الجنرال غورو فبارح « عارف » دمشق مع لفيف من اخوانه المناضلين من فلسطينيين وسوريين الى الاردن خشية ان تسلمهم السلطات الفرنسية الى السلطات البريطانية وعاش في مدينة السلط وظل يعمل في كتمان حتى صدر العفو عنه من المندوب السامي فعاد الى بيت المقدس وحاول ممارسة الصحافة مرة اخرى فلم يسمح له الانكليز بذلك وحظروا عليه الاشتغال بالسياسة . وتخلصا منه عرضوا عليه وظيفة حكومية فرفض قبولها ما لم يقبلوا شرطه وهو ان يحتفظ لنفسه بمبادئه السياسية فقبلوا هذا الشرط ودخل السلك الاداري بوظيفة قائمقام وقضى في

الادارة سبعا وعشرين سنة (١٩٢١ ــ ١٩٤٨) متنقلا بين جنين ونابلس وبيسان ويافا وبئر السبع وغزة .

وفي عام ١٩٢٦ استعارته حكومة الشرق العربي (حكومة شرقي الاردن فيما بعد) سكرتيرا عاما فقصد عمان وقضى فيها ثلاثة اعوام (١٩٢٦ ــ ١٩٢٨) لكن الانكليز اتهموه بتشجيع المعارضة وتحريض رجالها على رفض المعاهدة الاردنية البريطانية فاعادوه الى فلسطين وعينوه قائم مقام في بئر السبع ثم في غزة وتقديرا لمواهبه رفع مساعدا لحاكم لواء القدس وعهد اليه بادارة قطاع رام الله .

وبعد زوال الانتداب البريطاني على فلسطين وتوحيد ضفتي الاردن عين رئيسا لبلدية القدس ، وفي الانتخابات البلدية التي جرت في بيت المقدس عام ١٩٥١ نال اغلبية الاصوات فانتخب رئيسا للبلدية ، كما اعيد انتخابه لرئاستها بعد الانتخابات التي جرت عام ١٩٥٥ واسفرت عن فوزه فتسلم الرئاسة للمرة الثالثة .

وفي اعقاب عام ١٩٥٥ وقع عليه الاختيار ليكون وزيرا للاشغال العام وبعد ايام قلائل استقال من الوزارة لخلاف وقع بينه وبين رئيس الوزراء عهد ذاك لاصراره على تجنيب الاردن الدخول في حلف بغداد .

وفي عام ١٩٦٤ زاره ستة من الشبان الالمان يمثلون « رابطة الطلاب المسيحيين الديموقراطيين » في بون ودعوه لزيارة بلادهم والتحدث الى شعبهم عن القضية الفلسطينية فلبى الدعوة وزار عددا من امهات المدن الالمانية والقى عددا من المحاضرات والاحاديث عن القضية الفلسطينية باللغة الالمانية التي يجيدها ، ودخل مع رهط من الكتاب اليهود في جدل حول هذه القضية التي لم يرو التاريخ قضية أظلم منها .

وفي عام ١٩٦٧ عين مديرا عاما لمتحف الآثار الفلسطيني بالقدس وهذا النوع من العمل هو في الواقع من الذ هواياته ، بالاضافة الى هواية تفرد بها بين اعلام الفكر العربي وهي العكوف يوميا على تدوين مذكراته منذ ٥٠ عاما .

والاستاذ العارف يحسن من اللغات الحية سبعا هي : العربية والتركية والعبرية والافرنسية والالمانية والانكليزية والروسية .

وفي عام ١٩٦٧ حج بيت الله الحرام واجتمع بصفوة من رجالات المسلمين ومفكريهم وشرح لهم مأساة بلاده وتشرد مواطنيه لسبب واحد هو انهم ابوا التنازل عن موطنهم الغالي لطغمة من شذاذ الآفاق .

من آثاره القلمية : الف الاستاذ العارف عشرات الكتب والمحاضرات وقد عرفنا منها الكتب المطبوعة التالية :

١ ــ القضاء بين البدو . طبع عام ١٩٣٣ ترجم الى الانكليزية والالمانية والعبرية .
٢ ــ تاريخ بير السبع وقبائلها (١٩٣٤) ترجم الى الالمانية والعبرية .
٣ ــ تاريخ غزة (١٩٤٣) .
٤ ــ الموجز في تاريخ عسقلان (١٩٤٣)
٥ ــ رؤياي (الطبعة الاولى) (١٩٤٣) .
٦ ــ Bedouin Love Law And Legend (١٩٤٤) .
٧ ــ تاريخ الحرم القدسي (١٩٤٧) ترجم الى الانكليزية والفرنسية والالمانية .
٨ ــ المسيحية في القدس (١٩٥١) .
٩ ــ الموجز في تاريخ القدس (١٩٥١) .
١٠ ــ تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الاقصى المبارك .
١١ ــ النكبة الجزء الاول طبع عام (١٩٥٦)
١٢ ــ النكبة الجزء الثاني (١٩٥٧)
١٣ ــ النكبة الجزء الثالث (١٩٥٨) .
١٤ ــ النكبة الجزء الرابع (١٩٥٩) .
١٥ ــ النكبة الجزء الخامس (١٩٦٠) .
١٦ ــ النكبة في صور (الجزء السادس) (١٩٦٠) .
١٧ ــ المفصل في تاريخ القدس (١٩٦١) .
١٨ ــ سجل الخلود (الجزء السابع لكتاب النكبة) (١٩٦١) .

نموذج من نثره : « يوم له اثره في تاريخ حياتي ، ذلك يوم اتممت الاولية في مدرسة القدس الاعدادية ... المدرسة المأمونية ، وهي المدرسة الحكومية الوحيدة التي كان يؤمها ابناء هذه المدينة المقدسة في اوائل القرن العشرين .

وفيما كنت اعد العدة لمغادرة بلدي ومسقط رأسي قاصدا استانبول لاتابع دراستي في مدارسها الثانوية والجامعية ، وكانت هذه ــ من الناحية العلمية والدراسات الجامعية ــ قبلة الشبان من عرب واتراك وارمن واكراد ويونان والبانيين .

اتتنا أخبار تقول : « ان السلطان عبد الحميد الثاني بن السلطان عبد المجيد الذي كان قابضا على زمام الحكم منذ سنة ١٨٧٦ للميلاد ، خلعه الاتحاديون (١٩٠٨) واقاموا على العرش بدلا منه اخاه السلطان محمد رشاد الخامس ، وانهم اعلنوا الدستور ، وراحوا ينادون بسيادة مبادىء الحرية والاخاء والعدل والمساواة بين رعايا الدولة على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم ، فعم الفرح والابتهاج مدينة القدس وراح الناس يسيرون في شوارعها ... في مواكب ضخمة وتظاهرات صاخبة مهللين ... مكبرين ... منادين بسقوط عبد الحميد وسقوط عهد الظلم والاستبداد، ومرحبينبالدستور والحرية والمساواة.

كنت يومئذ في شرخ الشباب ، ورغم اني كنت في الصف الاعلى من مدرستي ... واول الناجحين من لداتي ... فما كنت افهم معنى « الدستور » والقصد من كلمة « المساواة » التي كان المتظاهرون يكثرون من ترداده ! ولم كانوا ينشدون اغاني « الحرية » ؟ ومن هو « محمد رشاد » السلطان الذي هتفوا بحياته ؟ ومن هو « عبد الحميد» الذي نادوا بسقوطه ؟ ومع ذلك كنت اسير وراء المتظاهرين واصيح مع الصائحين : « ليحيى الدستور ... ليسقط عبد الحميد ... ليحيى السلطان محمد رشاد الخامس ! انادي بسقوط زيد وحياة عمرو ، دون أن اعلم ما الذي فعله زيد وما الذي ينوي ان يفعله عمرو! تماما كما يفعل الكثيرون من الهاتفين في يومنا هذا ! الذين يشتركون في (مظاهرات) صاخبة ، دون فهم الاسباب التي ادت الى قيامها او فهم الاحداث التي يهدف اليها منظموها ! ومكثت على هذا النحو جاهلا معنى « الانقلاب » الذي حدث في استانبول سنة ١٩٠٨ والذي ادى الى سقوط عبد الحميد ... واعلان الدستور ... الى ان قصدت هذه المدينة ١٩٠٩ ورحت اتابع دراستي ، وهناك ادركت معنى الانقلاب الذي جرى في العام الفائت ، والوضع المزري الذي تردت فيه المملكة العثمانية على عهد السلاطين السابقين ، نتيجة للحكم الفاسد وانتشار الفقر والجهل والظلم والرشوة والاستبداد في جميع انحاء البلاد ، فايقنت ان الانقلاب امر لا بد منه ، وان الاتحاديين احسنوا صنعا في كل ما عملوه ... وما عملوه كان لخير قومهم وبلادهم .

وما عرفت انني « عربي » وانه يجب علي ان افكر في مصلحة قومي العرب الا عندما تأسس « المنتدى الادبي » في الاستانة ، واني لاذكر ان مؤسسيه كانوا اربعة هم : عبد الكريم الخليل ويوسف مخيبر وجميل الحسيني وسيف الدين الخطيب ، وقد سجل اسمى صديق لي في عداد اعضائه ، فرحت اتردد على المنتدى ، وكان الشعور القومي قد عم الطلاب العرب ، ورحت اسمع في جنباته كلمات « العرب » « العروبة » « القومية » « الوطن » وكثيرا ما كان الخطباء العرب يلقون الخطب الرنانة والقصائد البليغة من على منبره، في تمجيد العرب وحضارتهم والدعوة الى احياء الامجاد السابقة ... امجاد اجدادنا في بغداد ودمشق والاندلس .

واني لاذكر الآن من الخطباء الذين سمعتهم يتكلمون : عبد الكريم الخليل ، الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، رفيق رزق سلوم ، احمد عزة الاعظمي ، معروف الرصافي ، ولئن نسيت فلن انسى

الابيات العصماء التي القاها الرصافي للحث على التمسك بقوميتنا والتضحية في سبيل وطننا العربي ... والتي اصبحت فيما بعد نشيدا وطنيا ، رحنا ننشده كلما اجتمعنا في المنتدى او خارجه فنقول :

نحن خواضو غمار   الموت كشافو المحن
ما لنا غير اكتساء   العز او لبس الكفن
نبذل الارواح   نفديها لاحياء الوطن
هل سوى الارواح   للاوطان في الدنيا ثمن
يا ضلال الألى   لم يكونوا الفدى
ان نمت نحن فلتحيى اوطاننا

وقوله يوم مثلنا ، نحن اعضاء المنتدى الادبي ، رواية «السموأل» ووفاءه على مسرح « تيه باشي » الكبير في حي « بك اوغلي » وطلبنا اليه ان ينشدنا شعرا فاستوى على المسرح ، وانشدنا قصيدة من غرر شعره ، قال في مطلعها :

هو الليل يغريه الاسى فيطول   ويرخي وما غير الهموم سدول
أبيت به لا الغاربات طوالع   علي ولا للطالعات أفول

الى ان قال :

أقول لقومي قول حيران جازع   تهيج به أشجانه فيقول
متى ينجلي يا قوم بالصبح ليلكم   فتذهب عنكم غفلة وذهول
وينطق بالجد المؤثل سعيكم   فيسكت عنكم لائم وعذول
ولو ان فيكم وحدة عصبية   لهان عليكم للمرام وصول

جعلتني هذه القصائد والخطب والمحاضرات اولي وجهي شطر العروبة والقومية ، وازداد كرهي للاتراك عندما رأيتهم يعملون على بسط سيادتهم على العناصر والاقوام غير التركية التي تعيش تحت سيطرتهم ، فراح اخواني العرب وانا في عدادهم نعمل على صون مصالحنا والحفاظ على قوميتنا من الاندثار .

ولا بد لي من الاعتراف ان « المنتدى الادبي » كان من ابرز العوامل التي ادت الى انتشار الفكرة القومية في الاقطار العربية ، وكان موئلا للطلاب العرب الذين يؤمون الاستانة ، بالاضافة الى عدد كبير من النواب والاعيان ورجالات العرب الذين كانوا يؤمون العاصمة العثمانية ، ويقصدون « المنتدى » كلما جاءوا عاصمة الخلافة .

حتى الجمعيات ، سواء السرية منها او غير السرية الاخرى ، كان معظم اعضائها على اتصال بالمنتدى الادبي ، ومن هذه الجمعيات « جمعية الاخاء العربي » التي تأسست في الاستانة واغلقها الاتحاديون اثر حركة عصيان حدثت في ٣١ آذار ١٩٠٩ ، و « جمعية الفتاة » التي تأسست في باريس (١٩١١) وقوامها الدكتور احمد قدري وعوني عبد الهادي ، ورستم حيدر ورفيق التميمي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني وصبري الخوجة وتوفيق الناطور ، ثم انتقلت الى بيروت اثر اعلان الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) ثم الى دمشق ، وكان من اعضائها ايضا جميل مردم والامير مصطفى الشهابي وصبحي الحسيني وابراهيم حيدر ، ولقد تعرضت هذه الجمعية ، بسبب دعوتها لاستقلال العرب ، لغضب جمال باشا الطاغية ، فساق معظم رجالها الى ديوان حرب عاليه ، وما لبثوا ان لاقوا حتفهم على اعواد المشانق » .

٢ ـ الدكتور عبد القادر يوسف

الشعار الذي آمن به الدكتور عبد القادر يوسف وصارح به قومه سرا وعلنا قول العالم الاديب الدكتور احمد زكي رئيس تحرير مجلة « العربي » : « ان اخفاء رؤوسنا في الرمال كالنعام لا يفيدنا في شيء ... ولن يحرر ارضنا ، لذلك يجب علينا ان نواجه الحقائق بالعمل لا بالعواطف والحماس ! »

ولد « عبد القادر » في « الطيبة » بقضاء طولكرم ودخل مدرسة القرية في سن مبكرة ، واكمل الدراسة الابتدائية بفترة زمنية تقل عن مألوف سني هذه المرحلة ، وتابع دراسته الثانوية في طولكرم ثم انتسب الى مدارس المراسلات البريطانية واعد نفسه لامتحانات جامعة لندن .

ولتعذر التعليم العالي عليه عمل معلما ووجد في مهنة التعليم منطلقا لزيادة التحصيل ، فاحرز طائفة من الشهادات التي تؤهله للتدريس في المدارس الثانوية .

وبعد النكبة الفلسطينية الاولى عمل معلما في الاردن وبعد عام قصد الكويت ليعلم في « المباركية » الثانوية . وتطلعا الى مستقبل زاهر قصد الولايات المتحدة والتحق بجامعة انديانا الشهيرة وحصل على درجة الماجستير في التربية وعلم النفس والماجستير في العلوم السياسية و (الدكتوراه) في فلسفة التربية والعلوم السياسية ، وتقديرا من جامعة انديانا لتفوقه قدمت له منحة مالية سخية تمكنه من زيارة بعض الجامعات الاميركية ومكتبة الكونغرس بواشنطون اثناء اعداده الدراسة لاطروحة الدكتوراه . وخلال اقامته في الولايات المتحدة اسهم في ندوات وحلقات نقاش حول القضية الفلسطينية ، وكتب بعض المقالات في الصحف الاميركية في عرض وجهة النظر العربية .

وفي عام ١٩٥٦ عاد الى الاردن وعين مديرا عاما مساعدا للمطبوعات والنشر ، وما لبث ان استقال قاصدا ليبيا حيث عمل مدرسا في معهد المعلمين بطرابلس الغرب ومشرفا على برامج تدريب المعلمين ثم عين مدرسا في كلية الآداب والتربية بجامعة ليبيا وبقي هناك حتى مطلع عام ١٩٦٢ ثم استقال وعاد الى الكويت وعين في وزارة الارشاد والانباء الكويتية مراقبا عاما للبحوث والترجمة والتراث العربي ، وفي عام ١٩٦٤ عين خبيرا لمنظمة اليونسكو في بغداد .

آثاره القلمية :

١ ـ مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية طبع عام ١٩٦٢ .
٢ ـ التربية والمجتمع (١٩٦٤) .
٣ ـ ودرو ويلسون وسياسة توازن القوى (مترجم) ١٩٦٤ .
٤ ـ تنمية الكفاءات التربوية (١٩٦٧) .
٥ ـ الاناشيد الفائزة في الكويت (١٩٥٥) .
٦ ـ الخليج العربي (مترجم) .
٧ ـ عبرة النكسة .

نموذج من شعره : قرض « عبد القادر » الشعر طالبا واستاذا في فلسطين وخارجها ، وبعد حلول النكبة الروعة الاولى ، اقبل على القريض ينفس به هموم صدره ويتساءل عن وطنه السليب ، ويستعيد ذكريات صباه في مدارج طفولته ويصبو الى الدار ... والزيتونة ... والكرم :

وقفت وراء الحدود   أشيع أحلامي الباكيه
واندب ربع الجدود   اسائل عن عودة ثانيه
احقا تهاوى الشهاب   واصبح في وهدة هاويه ؟
احقا أرى أم سراب   واين انا ؟ أين اوطانيه ؟
احقا خسرناها ولن ترجعا
ولن أبصر الربع المرعا
وأمي وأهلي وصحبي معا
وتلك العشيات والمهجعا
وبيتا على السفح قد أشرعا ؟
وقفت وحيدا هناك   وبيني وبين دياري خطى
واقرب منها السماك   ومن دونها لاح طيف الردى
فيا وطني هل أراك   تحرر من واغل قد بغى
احب وأفدي ثراك   وأين انا ؟ أين اوطانيه ؟

أحقــا خسرناها ولن ترجعا ؟!

وقفت اسيــر الهمــوم   أود العبور الــى جنتــي
فهــذي دروب الكــروم   وهــا أنــا أبصر زيتونتي
يعانــق وجهــي النسيم   وقد لفني الصمتفي وحدتي
فلــم لا اشق التخــوم   وأين أنــا ؟ أيــن أوطانيه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

وقفت وطرفــي يجوس   خلال دياري وملهــى الصبا
هنــاك الدوالــي تميس   وتكسو الازاهير هام الربى
وخلف التــلال نفــوس   معودة أن تســل الظبــا
تطاطىء هــذي الرؤوس   لمــن ؟ وا لاوطانيــه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

وقفت نجــي الذكــر   اسائل عــن امسنا الاول
أهــذي عوادي القــدر   وكيف اغارت عــلى معقلي ؟
هنــا لبنينــا عبــر   هنــا الثار يزبد كالمرجل
أهــذا خيــال عبــر   وأين !نــا ؟ أين اوطانيه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

وقفت وعندي احتــراب   بنفسي يكاد يهد الشعاب
هنا الذل القــى حجاب   على وطن لــم يهن للغلاب
هنــا للدمــوع انسكاب   فقد جلل الذل هذيالهضاب
فهل لي .. لداري مآب   وأين انــا ؟ أيــن اوطانيه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

وقفت .. أهــذا طلــل   تقادم، لا فهو روض الخلود
مغانيــه منــذ الازل   على حسنها فيالبرايا شهود
فكم قــد رنتــه مقل   وهامت بــه ظبيات وغيد
فلــم اسلمته الاســل   وكيف رمى العار أوطانيه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

أمــد يدي فــي حنين   أصافح من ؟ ليس يدنو أحد
فتلفح روحــي الشجون   وتعصف بــي مائجات الكمد
ويبعث حقــدي الدفين   بنفسي يمور يهد الجسد
فايــن انتقــام السنين   واين انــا ؟ أيــن أوطانيه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

رجعت كسيــر الفــؤاد   وقــد عبثت بكياني البلايا
وقد ضاع منــي الرشاد   وسرت احبــر معنــى خطايا
لمثلــي يطيب الرقــاد   وخلف الحدود تركت هوايا
الى أين ؟ هل لــي معاد   واين انــا ؟ الــن أوطانيه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

فيــا وطنــي المستبــاح   ايــا موئل الشمم الضارب
لئــن اثختنك الجــراح   وحطت عليــك قوى الغاصب
فما هنت يــوم الكفــاح   ولا كنت فــي الذل بالراغب
احلما ارى فــي الصباح   وأين انــا ؟ أيــن أوطانيه ؟

أحقــا خسرنــاها ولن ترجعا ؟

ولــن أبصــر المربــع المرعــا
وامــي واهلــي وصحبــي معــا
وتلــك العشيــات والمهجعــا
وبيتــا علــى السفح قــد أشرعا ؟!

٣ ـ حســـن البحيـــري

ولد « البحيري » في حيفا بفلسطين في اعقاب الحرب العالمية الاولــى ودرس في احد كتاتيبها وانهى الصف الابتدائي الرابع فــي المدرسة الاميرية والتحق بالخدمة في سكة الحديد بحيفا ، ودرس علــى نفسه الانكليزية والعبرية ، واقبل على قرض الشعر ونشر القصائد والمقالات في جريدة « الدفاع » اليافية وفي الصحف والمجلات الحيفاوية وفــي « الرسالة » القاهرية و « الاديب » البيروتية .

وشعورا منه بان الامة التي تحدر منها مغلوبة على أمرها قــرر الاسهام بالحركة القومية الفلسطينية فقام ، مع الفدائيين العرب فــي حيفا بنسف المطحنة الكبرى التي اتخذها الخصم وكرا للاعتداءات ، وقد تم نسفها باتفاق بين « حسن » وكان موظفا في سكة الحديــد وسائق القطار على وضع لغم كبير أعدته القيادة العربية بحيفا فــي احدى عربات القطار الداخلة الى المطحنة ، فدمر الواجهة الاماميــة تدميرا شاملا واطاح بالآليات الكبرى ، وهنا أخذ المناضلون العرب في قصفها وتدمير اجزائها من الداخل بالقنابل ، كما وضع « البحيري » مع نفر من المجاهدين الغاما اخرى فــي عقارات حصينة اتخذهــا القناصة اليهود مراكز لاصطياد العــرب ، وبعــد حلول المأساة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) نزح « حسن » الى دمشق وعمل مراقبا للقسم العربي في الاذاعة العربية السورية ولــه برنامج اذاعي طريف بعنوان « مع القاموس » وبرنامج آخر بعنوان « مــن تراثنا الادبي » وعين استاذا للادب العربي في بعض ثانويات دمشق .

من آثاره القلمية : في سن مبكرة قرض « حسن » الشعر وحزم بعضه في ثلاثة دواوين دفعها للطباعة قبل وقــوع النكبة الاولى ، ودونك اسماء ما أضفى على الخزانة العربية من دواوين ومترجمات :

١ ـ الاصائل والاسحار ، ديوان شعر ، طبع في القاهرة عــام ١٩٤٣ .
٢ ـ افراح الربيع ، ديوان شعر ، القاهرة (١٩٥٤) .
٣ ـ ابتسام الضحى ، ديوان شعر ، القاهرة (١٩٤٦) .
٤ ـ اوسكار وايد (مترجم عن الانكليزية) دمشق (١٩٥٣) .
٥ ـ رجاء (قصة) مخطوطة .
٦ ـ ظلال الجمال (ديوان شعر) مخطوط .
٧ ـ جنة الورد (ديوان شعر) مخطوط .
٨ ـ دماء السراب (ديوان شعر) مخطوط .

نماذج من شعره : عاش « حسن » لصوقا بكبد الارض الطيبــة المغتصبة ، واحب منها شجرة البرتقال ، وهام بشذاها الفواح وصورها بريشة الشاعر ـ المصور الذي يكفيك مؤونة التساؤل :

أتسال عــن زهــرة البرتقال   عــن السر فــي سحــر ازهارها
عن الفجر يوقف ركــب الصباح   ليقبــس فتنــــة أنوارهــا
عن العطر تسكب منــه النجوم   ســلاف الدنــان لسمارهــا
وعــن قطرات النــدى والليالي   تصــوغ حلاهــا لاقمارهــا
عقودا تمنت للآلــي الجنــان   لــو انتظمت بــين أحجارهــا
أتسال عــن زهــرة نــورت   فهــام الفتــون بنوارهــا :
سمائي سقتها مــذاب الضياء   وارضــي غذتهــا باعطارهــا

وبعد أول نكبة مروعة اطاحت بفلسطين ومزقتها شر ممزق ... وفي ليلة من ليالي خريف عام ١٩٥٠ قصد الشاعر متنزهات «الربوة» و « دمر » بدمشق وفي جلسة شعرية حالمة خيل له ان حوارا يدور همسا بين اختين ... فصوره « حسن » شعرا وقال ببساطة الشاعر: « ان ارج الزنبق » هو « أنفاس الوطن » :

سالت ذات حنــين اختهــا   والدجى يعقــد اجفان الوســن
وصدى النجوى على افق الربــى   يزفر اللهفة فــي ليل الشجن
اخت : ما سر الشذا مــن زنبق   يبعث النشوة في قلب الزمن ؟
فاجابتهــا بلحــن شــارد   رن فاهتز لــه عطف الفنــن :
يا ابنة الايك ويا اخت الشجى   ارج الزنبــق انفاس الوطــن !

وظل « حسن » وفيا للوطن المغصوب ذاكرا « حيفا » الغافيــة في سواد عينيه ... الجاثمة في سويداء قلبه وراح يخاطبها مــن « ركن فلسطين » بالاذاعة العربية السورية بدمشق :

ما اشرقت عينــاك الا خانتــي   بصبابتي.. صبري.. وحسنتجملي
وتحسست كفاي مــن الم الجوى   سهما مغارس نصله فــي مقلتي

بسمات

•

لـــم تعـد ليلى التي أعرفها … لا من الغيد ولا فــي الظبيات
لا محياهـــا محياهــــا ولا … لفتات الجيد تلـــك اللفتات
قسمات الحسن غامتوامحت … وتفشتها الســنون السافيات
المصابيح التـي فـــي وجهها … أطفئت لـــولا بقايـــا بسمات

ودیع دیب

وتسارعت من مهجتي في وجنتي … حمر المدامع جدولا فـــي جدول
فلقد رأيت بلحظ عينك اذ رنت … والتيه يكحلهـــا بميل تدلـــل
«حيفا» وشاطئها الحبيبوسفحها … وذرى تعالت للسمـــاك الاعـــزل
ومنى تقضت فــي فسيح رحابها … وهوى تولى فـــي الشباب الاول
ورأيت هيمنة الامـــان مطمئـــن … اللهفات من غدر الصروف الحول
بظلال أهـــداب تـــرف غضارة … كظلال أهداب الغمـــام المثقـــل
وذكرت مـــن عمر النعيم مضاءة … بصبا على رود الليالي معجـــل
والعيش بستان وبسمة سعـــده … فجر بافراح المشارق ينجلـــي
والنجم يسحب من مشارف افقه … ذيل الاباء الـــى مشارف منزلي
عين رايـــت بسحرهـــا وفتونها … احلام عهد بالصفـــاء مظلـــل
ولمحت بـــين سوادها وبياضهـــا … ظل الصنوبر في أعالي «الكرمل»
فعلى جفونك لاح طيف ربيعـــه … والحسن يوطئه بساط المخمـــل
والسوسن المطلول بـين صخوره … خفق المطاف على أغاني البلبـــل
ومضاجع الاحباب فـــي احضانه … بين الخمائل من حرير موصلـــي
والريح تشدو في ملاعب دوحـــه … نغما تنام لـــــه عيون العـــذل
جبل اطـــل علـــى مرابع أنسه … قمري ... وغاب وتمه له يكمل
وغرست بـــين شعافه وشعابـــه … زهر الصبا ورويته مـــن سلسلي
ورعيته بالروح من لفح ... ومن … نفح ... ومن غير الزمان النزل
فنما على جهد الضنى وعنائـــه … وزكا علـــى جـــزح عسير المحمل
حتى استوىسوقا وهدهد خاطري … مجنى واكمام الرجاء بسمن لـــي
قطفته كف غيـــر كفـــي عنوة … وجناه من أرضي غريب المنجـــل
فاذا رنوت الـــى لحاظك تائهـــا … من سرها في جنح ليل أليـــل
متعثر اللحظات ، مشدوه الاسى … اهفو لحظ مدبـــر او مقبـــل
وانـــا ارود بلهفتـــي وصبابتي … الق السنى من وجهك المتهلـــل
فتطلعي ... لا تلقي جيـــد الحيا … عني ففي عينيك غايـــة مأملي .

واي شاعر أصيل ولد في الارض الطهور واكتحلت عيناه بسحر فلسطين وبرها ينسى الارض المغتصبة ، ولا ترف فـــي خاطره مغاني الصبا ومدارج الفتوة ، كما رفت في خاطر « حسن » والحسرة تمزق نياط قلبه :

فلسطين ... أن العلا مـــن اسى … اذا ذكـــروك لهـــا تطـــرق
ترابك ... هذا التراب الطهور … وفـــي روحـــه عطـــش مزهـــق
ساسقيه مـــن نفثـــات اللهيب … وفيض الدمـــاء حيـــا يغـــدق
لانبت حريتـــي فـــي ثـــراك … واجعـــل اغصانهـــا تـــورق
فتزهـــر فيـــك غصون الســـلام … ويبسم فـــي ظلهـــا الزنبـــق

وانى لشاعرنا « البحيري » ان يسلو « حيفا » مدرج طفولته ، وقد عاش يهواها ويتغنى بمفاتن ساحلها و « كرملها » ويصبو لنسيمها العليل :

اذا نظرت عيناك من بسط الفمض … مصابيح«حيفا» وهي باهرةالومض
رأيت السنى لف الدجى ورأيتها … نجوم سماء قد نثرن علـــى الارض
وان جلت بالطرف اللموح وانتهن … ذرى«الكرمل»الشم الشعاف على نهض
وشارفت ارجاء « الخليج » بظلها … وامواجه بـــين التبسط والقبض
وقطز السنى ينهل من قمر الدجى … فيغسل وجه الماء بالذهب المحض
تصورته صبحا و«حيفا» وسحرها … بقية ليل عنـــد شاطئه الفضي
بقية ليـــل قـــد تجمع نجمهـــا … مضى الليل عنهاوهي بالنجم لم تمض!

وعاشت « حيفا » فـــي قلب « البحيري » .. وظل يشيـــد بمناظرها الخلابة ، ويعاوده الحنين الى غابة مخضوضرة تقع في اعلى هضاب « الكرمل » :

وغابة في أعالي «الكرمل»ازدهرت … تلهو باغصانها انشودة الريـــح
اذا بكى الغيث وانهلت مدامعـــه … تبسم الزهر فـــي ارجائها الفيح

وتوالت الاحداث المروعة على عرب فلسطين ، واحس «البحيري» ما ينتظر الشعب البريء من ترويع وتفجيع ، وما يدبر الخصم الماكر والمستعمر الغشوم من مكايد واحابيل للايقـــاع بهـــذا الشعب المؤمـــن بعروبته :

فيا امـــة كـــم أهاب الرشاد … بهـــا للسداد فلـــم تزدجـــر
ولـــم تهف الا لحض الصغـــار … ولـــم تصب الا لامـــر نكـــر
الام التلهـــي بسخف الامـــور … عـــن الجد بين الرزايا الكبـــر ؟
لقد بلـــغ السيل هـــام الزبـــى … ولم يبق في العيش من مصطبر
وكيف بصبر عـــلى ليل جهـــل … دجى بالملمـــات لمـــا اعتكـــر ؟
فلا بد للشعب مـــن صيحـــة … يدوي صداهـــا بسمع العصـــر
لتبعثـــه مـــن رموس الرقـــاد … فينفـــض مـــن وزره مـــا وزر
ويحطم مـــن قيده مـــا بـــراه … فيرجع مـــن مجده مـــا غبـــر
ولا بـــد للعلـــم من وثبـــة … الـــى مـــا وراء النجوم الزهـــر
لنلقـــي نيـــر العمى والضلال … ونخلع عنـــا ســـواد الازر
ونمضي بعـــد اعتكار الظـــلام … الـــى حيث نـــور الصباح الاغـــر
لنـــدرا عـــن مهـــد عيسى المسيح … وموئـــل مسرى الرسول الخطـــر
والا فيـــا ويلنا مـــن فنـــاء … علـــى بابنـــا بالردى ينتظـــر
وهل فـــي بقاء لنـــا من جـــداء … اذا لـــم نقـــم لنزال الغيـــر
فترتـــد عنـــا باحـــدى اثنتين : … حياة العلا ... او ظلام الحفر !

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

معجم الشذور الذهبية في الالفاظ الطبية

بقلم ضاحي عبد الباقي

* * *

شهدت مصر في النصف الاول من القرن الماضي نهضة علمية على اثر اتصالها بالحضارة الغربية ، استتبعت ترجمة التراث العلمي الغربي ، واقتضى ذلك الاهتمام بالمصطلح لتوضيح الدلالة العلمية . وقد شعر بذلك رفاعة الطهطاوي وهو في باريس فقال : « فن الترجمة وهو من الفنون الصعبة خصوصا ترجمة الكتب العلمية ، فانه يحتاج الى معرفة اصطلاحات اصول العلم المراد ترجمتها » (تخليص الابريز ص ٦٧) كما شعر بالمشكلة ايضا بعد عودته الى مصر واشتغاله بالترجمة ومراجعة الكتب ، وسجل هذا الشعور في مقدمة اول كتاب طبع له وهو « المعادن النافعة » (انظر ص ٣) . وممن عبر عن هذا الشعور كذلك خليفة محمود تلميذ رفاعة ، فقال في مقدمة كتاب « اتحاف الملوك الالبا » : « ان اللغة العربية بمعزل عن اللغات الافرنجية ، فلزم لي معاناة اين ومكابدة مشاق بين حين الى حين لاجل ان آتي بمقابل الفاظ يصعب وجود مقابل لها في العربية يكون مطابقا لمعناها ومؤديا لجميع مفادها وفحواها حتى انه ربما ورد علي بعض الفاظ لم اجد لها مقابلا بالكلية ، فبلفظها الاصلي ذكرتها ، وبجملة اعتراضية فسرتها » (ص ٨ من سابقة الكتاب) .

وكان لا بد ان يوضع لهؤلاء العلماء معجم اصطلاحي يرجع اليه كل مترجم او مؤلف في تحديد ما يواجهه من مصطلحات ، وللمعجم اهمية كبرى في توحيد المصطلحات والاكتفاء بمقابل واحد للفظ الاجنبي الواحد ، وبذلك يقضي على البلية الناشئة من تعدد المصطلحات ، لذا وجدنا اهتماما بوضع معاجم اصطلاحية في ذلك الحين .

مراحل المعاجم الاصطلاحية : وقد مرت المعاجم الاصطلاحية في تلك الفترة بمرحلتين :

الاولى : معاجم الحقها اصحابها بكتب ترجموها ، ولم تتعد الاصطلاحات الواردة في الكتب التي الحقت بها . واول من ادرك اهمية ذلك الاب رفائيل زاخور – على ما اعلم – فقد جمع المصطلحات الواردة في كتابه « صناعة صباغة الحرير » وشرحها واثبتها في اول كتابه . ثم تابعه في ذلك – وان لم يشر اليه – رفاعة الطهطاوي وتلاميذه . وهذه المعاجم اكتفت بتدوين المصطلحات باللغة العربية ولم تضع مقابلاتها الافرنجية .

الاخرى ، ثم تطور المعجم الاصطلاحي ، فاصبح معجما خاصا بعلم واحد مع ما يتصل به من علوم أخرى غير مقيد بكتاب معين ، وهذه المرحلة مرت بدورها بعدة اطوار اقتصرت في الطور الاول على المصطلح العربي دون ذكر المقابل الاجنبي ويتمثل ذلك في معجم « الشذور الذهبية في الالفاظ الطبية » موضوع بحثنا .

الشذور الذهبية في الالفاظ الطبية : لم تقتنع مدرسة الطب بالمعاجم التي كانت تلحق بالكتب ، ففكرت في وضع معجم يشمل الاصطلاحات التي تتصل بالعلوم الطبية ، فتضافرت المدرسة بكل هيئاتها على القيام بهذا العمل ، واحضر « كلوت بك » من فرنسا معجم « قاموس القواميس Dictionnaire des dictionnaires de médecine تأليف فابر ، وهو قاموس يقع في ثمانية اجزاء ويحوي جميع الاصطلاحات العلمية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الاخرى المتصلة بالطب (حركة الترجمة في عصر محمد علي للدكتور الشيال ص ١٩٢) . وقد قسم ناظر المدرسة اذ ذاك « الدكتور برون » هذا المعجم على اساتذة المدرسة وهم : ابراهيم النبراوي ، معلم الجراحة الكبرى ، ومحمد علي معلم الجراحة الصغرى ، ومحمد شافعي معلم الامراض الباطنية ، ومحمد الشباسي معلم التشريح الخاص ، و عيسوي النحراوي معلم التشريح العام ، واحمد الرشيدي معلم الطبيعة ، وحسين غانم الرشيدي معلم الاقربازين والمادة الطبية ، ومصطفى السبكي معلم امراض العين ، وحسين علي معلم علم النبات (الشذور الذهبية جـ١ اللوحتان ٢ و٣) « فترجم كل من هؤلاء الاساتيذ الجزء الذي اعطيه واجتهد في توقيع لفظه على المعنى » (الشذور جـ ١ اللوحة ٣) . الا ان « برون » لم يقنع بذلك بل اراد ان يتضمن القاموس المصطلحات التي وضعها العرب من قبل فأحضر اولا « القاموس المحيط » للفيروزآبادي ، وقسمه على اساتيذ المدرسة السابق ذكرهم – الذين قاموا بترجمة القاموس الفرنسي ، واشرك معهم الشيخ محمد عمر التونسي (كاتب مقدمة المعجم) والشيخ سالم عوض المصحح الاول ، والشيخ علي العدوي وطلب ان يراجع كل منهم جزاه ويستخرج منه « كل لفظ دال على مرض او عرض ، و كل اسم نبات او معدن او حيوان في خلاله قد عرض » (نفس المصدر اللوحة ٣) . ثم اختص الشيخ عمر التونسي بمراجعة « قانون ابن سينا » وتذكرة داود ليستخرج ما فيها من تعاريف ، ولم تقف همته عند هذا الحد بل انه – كما يقول – زاد على ذلك « ما في فقه اللغة ، ومختصر الصحاح ، وما في الهروي من التعاريف الصحاح و ضمنت لذلك اسماء الاطباء المشهورين واسماء عقاقير كنت ارتها في بلاد السرادين » (نفس المصدر واللوحة) ثم قام بعد ذلك الشيخ التونسي بترتيب

القاموس ترتيبا معجميا مراعيا في ذلك شكل الكلمة الخارجي فنجد مثلا « احول » في باب الهمزة فصل الخاء ، و « ارتجاج » في باب الهمزة فصل الراء . وبعد ان انتهى التونسي من تحرير المعجم تحريرا وافيا قابله معه وكيل المدرسة محمد شافعي، ثم سماه (اي التونسي) في النهاية « الشذور الذهبية في الالفاظ الطبية » (الشذور ح ١ اللوحة ٤) .

وقد تم اعداد هذا المعجم في ١٠ من شعبان سنة ١٢٦٥ ه ، وما كاد يصل الى التمام حتى كان عصر محمد علي قد انتهى وتوفي ابنه ابراهيم وتولى عباس الاول زمام مصر ، وبدأ عصر الركود العلمي ، فأخذ « كلوت بك » المعجم الى باريس واهداه الى المكتبة الاهلية Bibliothèque Nationale وذلك في التاسع من شهر سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٥١ .

وفي مفتتح القرن العشرين احضرت دار الكتب المصرية نسختين من هذا القاموس مصورتين بالتصوير الشمسي . وفي نحو سنة ١٩١٠ فكرت وزارة المعارف المصرية في طبعه وعهدت بذلك للدكتورين : احمد عيسى وفارس نمر (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في مصر من عهد محمدعلي للدكتور السيال ص١٩٣) ، فقام الدكتور عيسى بتحقيق جزء من المعجم (من اوله الى مادة « ازاد ران ») غير مكتف بالنص العربي ، بل وضع امام كل مصطلح عربي مقابله باللغتين الانجليزية والفرنسية ، طبعته دار الكتب المصرية على نفقتها في مطبعة المقتطف سنة ١٣٣٢ ه (١٩١٤ م) ووقف عند هذا الحد فلم يتابع تحقيق بقية المعجم ، كما ان الدكتور فارس نمر لم يتابع هو الآخر نشر المعجم فضلا عن انه لم يشارك الدكتور عيسى في الجزء الذي حققه .

ومن يطلع على هذا المعجم يلاحظ انه يمتاز بأنه :

١ ـ جمع بين المصطلح وتعريفه .

٢ ـ يحتوي على كثير من مصطلحات القدامى .

٣ ـ لم يغفل المصطلحات الحديثة .

٤ ـ جمع بين العربي والدخيل سواء أكان هذا الدخيل دخل العربية في عصورها الاولى (عصور الاحتجاج) ام في عصر النهضة العباسية ، ام في العصر الحديث فهو يشمل كما يقول التونسي (الشذور ص ٣ من المقدمة) :« اسماء لطينية واخرى فرنساوية (كذا والصواب فرنسية) واخرى فارسية سواء استعملها العرب ام كانت محدثة » على ان غالبية مصطلحات المعجم عربية .

ومن امثلة المصطلحات الواردة بهذا المعجم :

١ ـ أخيف : هو الفرس الذي احدى عينيه سوداء والاخرى زرقاء .

٢ ـ اذان الارنب : هو نبات من الفصيلة الشعاعية ثنائي اعضاء التأنيث .

٣ ـ افيوستوم : اسم لنوع من الديدان الطويلة المتولدة من باطن الانسان ، وهو اسم يوناني مركب من كلمتين معناه ذو فم افعى .

٤ ـ المنقنيز : هو جسم لا يوجد في الارض نقيا بل في حالة الكبريتورا والاكسيد او الفوسفات او الكربونات او التونجستان .

٥ ـ الوصب : ما بين البنصر الى السبابة ، وبالتحريك المرض (ج : اوصاب) ، وقيل هو دوام الوجع ولزومه ، وقد يطلق على التعب والفتور في البدن ، وقيل هو شدة الوجع .

٦ ـ يوديك: هو حمض ناشيء من اتحاد الاوكسجين باليود ، وهو صلب شفاف ابيض حامض قابض لا رائحة له

ولكننا نأخذ على المعجم اغفاله المقابل الافرنجي بالرغم من ان ذلك لم يكن ليكلف القائمين على العمل كثير عناء ، خاصة وانهم اعتمدوا في اول الامر على قاموس فرنسي كما سبق ان ذكرنا .

وهذا المعجم يقع في اثني عشر جزءا ، كل جزء منه يحوي مائة لوحة عدا الجزء الاول فانه يشتمل على تسع وتسعين والجزء الاخير فان به ثماني وتسعين .

وبعد فلقد آن الاوان لهذا التراث ان ينشر ويرى النور ليستفيد منه الدارسون بعد قرابة قرن وربع القرن حبيسا متواريا بين الاضابير عن اعين الناس .

حقيقة ان الدنيا تقدمت والعلم يخطو كل يوم خطوات سريعة ، وان مصطلحات هذا المعجم لم تعد تكفي الان لمواجهة العلوم الطبية المتطورة ، كما ان منها ما تغير مدلوله بسبب الاكتشافات المستحدثة ، لكن الذي لاشك فيه ان جل هذه المصطلحات ما برح يستعمل في عالم الطب ، وان في نشر هذا المعجم فائدة عظيمة للدارسين ومادة خصبة للهيئات التي تعنى بالمصطلحات ترجح ما ينشر من كتب القدماء ، لانه يتناول مصطلحات القدماء والمصطلحات التي جدت بعدهم حتى القرن التاسع عشر . ويحسن ان يراعى عند تحقيق هذا المعجم المنهج الذي اعتمده المرحوم الدكتور احمد عيسى في نشرة الفصلة الاولى منه، فيحرص على وضع المقابلين الانجليزي والفرنسي ، وتحقيق ذلك ليس بالعسير لان واضعيه اعتمدوا على معجم فرنسي يمكن الرجوع اليه . وافضل تحقيق المصطلحات تحقيقا علميا مقارنا بما وصل اليه العلم اليوم مشارا الى الجديد او الخلاف في الحاشية ، وفي ذلك فائدة كبيرة لمؤرخي العلوم .

ان نشر هذا المعجم امانة في عنق المجامع اللغوية والعلمية التي تعنى بالمصطلحات الطبية ونرجو ان تتحفز لذلك الهمم ، ونسأل الله التوفيق والسداد .

ضاحي عبد الباقي — القاهرة

عندما دقت ساعة الجامعة في المذياع تعلن الخامسة مساء ... وقف الدكتور (وحيد) يضبط ساعته قبل ان يدخل محل بيع الاسطوانات ليشتري اسطوانة ليكمل بها مكتبته الفنية .

وعندما دخل المحل ..

كان خاليا الا من بعض المشترين .

وقد انشغل صاحبه ببعضهم .

وقد استأذن البائع من الدكتور « وحيد » لينتظره حتى يفرغ من هؤلاء المشترين ..

ووقف الدكتور « و حيد » يقلب في الاسطوانات المعروضة على تلك الحوامل التي اعدت خصيصا لها في شكل جميل منسق .

وبينما هو كذلك ..

دخلت من الباب الخارجي ..

شابة في الثلاثين تقريبا .. ندية الحسن .. رشيقة القوام .. ترتدي (فستانا) يميل الى اللون الاصفر .. يتوسطه حزام عريض من الجلد تقريبا بنفس لون (الفستان) ... تتدلى من مقدمته حلية ذهبية ..

وتنتعل حذاء ذهبيا بسيطا مفتوحا اطلت منه اصابع قدميها المطلية ، اظافرها الطويلة باللون الفضي .

اما وجهها فلم يتبينه الدكتور (وحيد) جيدا فقد كان يختفي نصفه تحت نظارة شمسية سميكة .. وعلت شفتيها المطلية بلون هادىء .. بسمة هادئة ..

وكان رأسها متوجا بشعر كستنائي اللون تخللته بعض الشعيرات البيضاء فأعطت لصاحبته وقاراً ..

وقطع تفكير الدكتور (وحيد) وتركيزه على هذه الشابة صوت البائع وهو يقول :

ـ امرك يا سيدي ..

فابتسم الدكتور « وحيد » قائلا مشيرا الى هذه الشابة :

ـ تفضلي ..

فشكرته بابتسامة شاحبة ..

وطلبت من البائع اغنية « نجاة »، « عاليادي » ..

وقبل ان يغادر البائع مكانه ...

التفت الى الدكتور وحيد قائلا :

ـ وسيادتك ..

ـ نفس الاغنية ..

واختفى البائع .. داخل مخزنه .

وظل الدكتور وحيد واقفا امام هذه الشابة يتأمل جمالها الهادىء الحزين ..

وقد هبت نسمة من المروحة الكهربائية التي تدار داخل المحل فتناثرت بعض الشعيرات على وجهها .. فأزاحتها بأناملها الرفيعة المطلية اظافرها الطويلة باللون الفضي ..

وتأمل الدكتور وحيد يدها

قصة اغنية

بقلم رستم كيلاني

اليسرى التي أزاحت بها تلك الشعيرات .. فلفت نظره خاتم الزواج يلمع في اصبعها ..

وما لبث حتى بادرها الحديث قائلا :

ـ لا بد ان الهانم تحب اغاني « نجاة » ..

ـ بلا شك ..

ـ لماذا ..

فابتسمت ابتسامة لطيفة .... رقيقة ..

ـ انت صحفي .؟

ـ لماذا ؟؟

قصة

ـ اسئلتك تدل على ذلك .

ـ ابدا .. ولكن لانني ايضا احب اغانيها .

ـ فعلا « نجاة » تحمل صوتا هادئا فيه نبرات حزن عميق .... وتجسد الكلمات في الالقاء ... فيحس بها الانسان الذي مرت عليه نسمات حزن ..

ومرت لحظة صمت فعاد الدكتور « وحيد » قائلا :

ـ و خاصة اغنية عاليادي ..

ـ فعلا هذه اغنية منحتني شعورا غريبا ..

وقطع حديثهما البائع وهو يقول :

ـ لقد نفذت جميع اسطوانات هذه الاغنية ولم تبق الا اسطوانة واحدة .. فمن منكما سيشتريها .؟

فوقف الدكتور « وحيد » وهذه الشابة وجها لوجه في صمت دون ان ينطقا بحرف واحد ..

ثم استطردت قائلة :

ـ ان الاستاذ جاء قبلي فمن حقه ان يأخذها ..

فأردف وحيد قائلا :

ـ ابدا انت احق بها مني ..

وبينما هما على هذا الحوار ... دخل بعض الزبائن .. وقبل ان ينشغل البائع بهم .. طلب الدكتور « وحيد » منه ان يسمعه هذه الاغنية ..

فوضعها الرجل على (البيك اب) وبدأت « نجاة » تشدو ..

وظلت تشدو .. حتى جاءت بكلماتها ..؟

« ياما جرح الورد ايادي حتى الجنانية » ..

ولاحظ « وحيد » ان الفتاة أدارت وجهها بعيدا عنه وخلعت نظارتها الشمسية السميكة .. وأخرجت من حقيبتها البيضاء الصغيرة .... منديلها .. وبدأت تمسح بعض قطرات دموعها ..

فأوقف « وحيد » بسرعة الاسطوانة وقال لها :

ـ لا بد ان هذه الاسطوانة لها ذكرى مريرة عندك ..

ـ ربما .. ولذا فقد جئت لشرائها .. لان هذه الدموع تريحني.

ـ اذن فلا بد ان تشتريها انت ..

ـ وانت ..

ـ ساشتري غيرها من اي مكان اخر ..

ـ لا .. لقد حضرت انت لكي تشتريها ... وقد جئت قبلي ... ورانت بينهما لحظة صمت قصيرة . ثم اسرع قائلا :

ـ ماذا فكرت .. خذيها انت ..

ـ خذها انت ..

وضحكا ..

وجاء البائع يستفسر عمن سيشتريها منهما ..

فأسرعت الشابة موجهة حديثها « لوحيد » ..

ـ اذن طالما نحن على جدال بالنسبة لشراء هذه الاسطوانة .. فيجب علينا ان نتركها لشخص اخر يحب ان يشتريها ..

فابتسم « وحيد » لرأيها واعتذر للبائع ..

وغادرا المحل ..

★

وعند مفترق الطريق .. قال الدكتور «وحيد» في صوت هادىء :

ـ يسعدني .. ويشرفني توصيلك .. هذا اذا لم يزعجك ..

فلاحت على شفتيها بسمة هادئة .. وقالت بدون تردد :

ـ ابدا .. هل لديك سيارة .

ـ لحسن حظي .

وضحكا معا ..

وفي السيارة ركبت بجانبه .

وانطلق الدكتور « وحيد » يجوب شوارع المدينة المزدحمة بسيارته حتى ابتعد بها الى الشوارع الهادئة.

وفي طريق النيل .. وعند ذلك (الكشك) وقف « وحيد » وطلب من البائع زجاجتين مثلجتين ..

وانطلقت السيارة من جديد ...

وفي الطريق ..

قصت عليه قصة غريبة من نوعها .. قصة حبها لاغنية «عاليادي» ..

وقد نسيت نفسها وهي تروي له القصة . اذ احست براحة عميقة معه ..

وعرف كل شيء عنها ..

عرف قصة خاتم الزواج الذي يتوسط اصبعها ، والذي خلا من اي رمز يشير الى دلالة معينة ..

الا انها اتخذته ستارا يحجب عنها كل طالبي الزواج منها حتى تتفرغ لتربية اختها الصغيرة التي اصبحت هي بمثابة ام لها بعد ان طاح العدوان الثلاثي بجميع افراد اسرتها ..

وكانت تقطن مع عمها بالقاهرة الذي اكتهل وفقد شريكة عمره والتي لم تترك له ذرية يلتفون حوله في شيخوخته ، ولم تعد سنه او صحته تسمح بالزواج ..

هربت من الحب ..

هربت من الزواج ..

هربت من مظاهر الحياة ..

وعاشت راهبة حتى جاوزت الثلاثين من عمرها .. وقد فاتها قطار الزواج وقد رضيت بهذه التضحية ، وذلك من اجل عمها أولا .. ومن اجل شقيقتها ثانيا ..

★

وشبت اختها .. واستوى عودها حتى اذا ما تحقق حلمها المنشود .. وجاء يطلب يدها من عمها ذلك الفارس المنتظر الذي يداعب خيال كل فتاة ..

وتم الزواج ..

ومرت الايام ..

حتى اطل برأسه يوم عابس مشؤوم .. وجاءت الاخت مستوفزة الاعصاب بوجه مكفهر .. وفاجأت اختها بما لم تكن تتوقعه .. اذ اتهمتها بأنها تقيم علاقة مريبة مع زوجها ..

.. وادعت انها راته كثيرا معها

.. وان مقابلته قد تعددت بدون مناسبة .. وانها تحس بأن طباعه قد تغيرت .. وانها لم تعد عنده بالاثيرة كما كانت .. ومرت بخاطرها اشياء كثيرة ويعلم الله انها كانت واهمة فيما ذهبت اليه فلم يكن بينها وبينه اية علاقة وكل ما كان يخرج من مصادفات عائلية وظروف لم تكن هي صانعتها ولم يدر بخلدها يوما انها تنافس اختها في زوجها .. وانها هي التي ايدت عمها في زواجها هذا ..

هكذا جرح شوك تلك الوردة الناضرة يد من اعتنت بها .. وسقتها ذوب وجدانها .

★

كانت ما تزال مسترسلة في حديثها معه حين بدا على ملامحها فجأة كأنما تذكرت شيئا .. وقالت :

ـ عذرا فقد اثقلت عليك بحديث ما كان لي ان افضي به لاحد ... وشكرا لك .. والان يكفي تعبك معي . واستطيع ان اقطع المسافة الباقية الى بيتي حتى لا اكون موضع اشتباه ممن يعرفونني بالحي ..

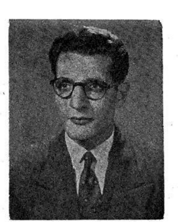
ـ ليس هناك من اسف اذ ان من همست اليه بحديثك طبيب توجب عليه مهنته الاحتفاظ بأسرار الناس .. وعلى فكرة هاك بطاقتي .. فربما تحتاجين اليها يوما .. ما ..

وتركها ..

وكان صوت المذياع يردد ...

« ياما جرح الورد ايادي حتى الجنانينية » ..

القاهرة **رستم كيلاني**



الدكتور محمد رجب البيومي

الاندلس تحتذي المشرق

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

من الاشعار التي تروى لعبد الرحمن الداخل قوله :

ايها الراكب الميمم ارضي   اقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما تراه بارض   وفؤادي ومالكيه بارض
قدر البين بيننا فافترقنا   وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالبعاد علينا   فعسى باقترابنا سوف يقضي

هذه الابيات ذات دلالة هامة ، لانها تصور نوازع الامير الباسل الى مطارح عزته بالمشرق ، فجسمه بالاندلس وحده ، ولكن فؤاده بالمشرق ، وهذا الشعر أعظم من ان نقصره على هوى وجداني يتصل بحبيبة معينة ، فالمعروف عن الداخل أنه قدير على كبح أهوائه معرض عما يفوق مجده السياسي من ترف وأنس وغيد وشباب ! وقد وقعت من قلبه بعض الشابات الفواتن في غفوة من غفوات ارادته فلم يمهلها غير أسبوع ، واطلق سراحها معلنا لها في تاثر مرير ، انه لا يستطيع ان يسجنها في قصر من الذهب لا يفاديه صاحبه الا على أبعاد تترامى حتى تكاد تنقطع !

اقول ان هذه الابيات تصور ظمأه الحار الى مجد الشرق ببغداد، وولوعه ان يصبح ذات يوم فيجد نفسه حاكم المشرق لا غريبا نائيا يصارع الاهواء المتناحرة في أقصى البلاد ، وكانت الاهوال العاصفة من حوله تذكي بقلبه لواعج هذا الحنين المتقد ، فيوسف الفهري والصميل يجتمعان بادىء ذي بدء على مناوءته فاذا تغلب عليهما بجهد جاهد نازعه القاسم بن يوسف ثم يتوالى الثائرون من بعده من امثال عبد الغافر اليمني وحيوة من ملامس وهشام الفهري والعلاء بن مغيث حتى تعظم الداهية بظهور الفاطمي البربري ! محن متتالية متشابهة كليلات المحاق ، هذه من تلك .

والرجل الطموح لا يكاد يتنفس في تؤدة ، فاذا فرغ في بعض اوقاته للنهوض الداخلي ببلاده هاله ان يجد الفرق شاسعا بين فوضى البربر وقبائل القيسية واليمنية واخلاط الاسبانيين ممن يحكمهم في دولته الناشئة ، وبين حضارة المشرق ، وثقافة بغداد ، وسحر دمشق! واذا كان لا بد مما ليس منه بد فليتخذ من الشرق مثالا حضاريا يحتذيه ، ولتكن بغداد بحضارتها وعلمائها وادبائها وشعرائها منار هدايته ، على ضوء حضارتها يبني دولته ، وبثقافتها الحية يملأ عقول رعاياه وبادبها الزاهر من شعر ونثر يسكر ارواحهم بما يلذ ويشوق .

كان المشرق اذن استاذ الاندلس ، تتطلع اليه في اخلاص ورغبة ، ولا تحاول قبل عصر الناصر ان تقيس نفسها به ، بل كبرى مناها ان تحرز نفائس مؤلفاته وروائع آثاره ، وان يفد أبناؤها الرحيل الى الارتشاف من حياضه والري من موارده ، فاذا وفد عليهم وافد من اعلام الشرق تطلعت اليه العيون في اكبار واقتعد مقعد الاستاذ عن فخر واعتداد .

ومعروف ان الكثرة الكاثرة من جنود الفتح الاول كانت من البربر ، والاقلية القليلة من العرب ، وهؤلاء وأولئك لا يتيسر لهم ان يقيموا ثقافة ادبية او حضارة عمرانية ، لان البرابرة بداة لم يتمكنوا من العربية ، وزملاءهم من العرب في صراع طائفي بين قبائلهم تارة وبينهم وبين المغاربة تارة ثانية وبين الاثنين وبقايا القوط من غلاة الناقمين تارة ثالثة ، وحالة كهذه لا تسمح برقي وازدهار حتى اذا جاء الداخل مهد الاسباب الى تدفق عربي جديد ، وقد اضطرته السياسة ان يستعين بهم على البربر تارة وان يستعين بالبربر عليهم في اكثر المنازعات حتى اذا هدأ الجو بعض الشيء في اواخر ايام الداخل بدأ الاهتمام بثقافة المشرق يأخذ مأخذه وتطلع التلاميذ المفتربون الى اساتذة كبار ..

على ان اسباب الاتصال بين المواطنين كانت ممرمدة ميسرة ، فأرض الاسلام بلد واحد في منطق الرعايا والافراد ، يرحل المسلم أذ ذاك ما يرحل فلا يساله سائل ماذا يقصد ؟ واين يريد ! ومن يرحل من الاندلس الى المشرق يتزود بالزاد الدسم من الثقافة والعلم والادب ويرجع الى بلاده حاملا نفائس المؤلفات وروايا بدائع الاشعار ومسجلا ضوابط اللغة والعلوم فيتبوأ مكانة الاستاذ ويعظم في عيون مواطنيه عظمة تخصه بالهيبة والجلال ، وتمهد له مناصب الفتيا والقضاء ان تفقه ، والوزارة والكتابة ان تفقه وتادب ! هذا من رحل الى المشرق، اما من قدم من أعلامه فهو تحفة نادرة يتوافد الناس الى رؤيتها ، ويقبلون على الاستفادة من غيرها ، وقد سجل المؤرخون كتبا كثيرة تحمل اسماء من رحل وعاد كما تسجل مواقف من قدم فأفاد ، وهناك كتب أخرى تجمع اسماء المؤلفات الوافدة من المشرق ، وهي تضم نفائس اعلامه في كل مجال من مجالات الثقافة فقها ولغة ونحوا وتصريفا وتاريخا وادبا دع ما عرف من فنون الجدل والفلسفة ، فقد ظلت الاندلس بمنأى عنه الى امد بعيد .

أتت الرحلات والمؤلفات ثمارها ، حتى جاء عهد الناصر وولده الحكم فكانا بالاندلس بمكان الرشيد وولده المأمون بالمشرق ، فاذا كان هارون الرشيد قد أحيا الحركة الادبية ببغداد على عهده بما نفح به الشعراء من هبات جزيلة ، وبما شاهد من المناظرات العلمية بين الكسائي وائمة اللغة والادب في ابهاء مجالسه ثم بما أنشأ من خزانة الحكمة حين ولى يوحنا بن ماسوية ترجمة الكتب الطبية القديمة واخذ يجمعها من انقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، ثم جاء ولده المأمون فسار في الشوط الى نهايته ، وشأى أباه في تغذية الحركة الفكرية، بحيث كانت مجالسه مدارس علماء وحلقات مفكرين ثم زاد في نطاق بيت الحكمة حتى راسل ملك الروم في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة لديه ، وبعث لذلك جماعة من افذاذ التراجمة كابن البطريق وسلم والحجاج بن مطر ، حتى أصبحت بغداد وارثة الروم ثقافة وعلما كما مثلت فارس والهند ادبا وحكمة ، اذا كان الرشيد والمأمون قد خطوا هذه الخطوات العلمية ببغداد ، فانهما قد رسما

الطريق للناصر وولده الحكم بالاندلس ان يقفوا اثريهما في المجال المديد .

لقد بدأ الناصر فاستقدم ابا علي القالي صاحب الامالي وساعده استقرار الامن في بلاده وازدهار الرخاء في عصره وطموح الامل في نفسه ان يدفع البلاد الى نهضة ثقافية شاملة ، وحضارة انسانية زاهرة ! وكان أثره القالي بعيدا رائعا حيث تخرج على يده اعلام ثقات في الدراسات اللغوية كما استطاع ان ينصر المذهب القديم في الشعر العربي حين روى آثار الجاهليين والاسلاميين ، وظل في قرطبة ثمانية وعشرين عاما ، ومهما كان من تأثيره اللغوي والادبي فانه لا يقاس بأثره العظيم في تنشئة الحكم نشأة ادبية ، جعلته وهو ولي العهد يبذل المستطاع في جمع الكتب وتاليفها حتى اذا أصبح صاحب الامر في البلاد ، احدث هذا الدوي الرنان في دنيا الثقافة الاندلسية ! ويقول الذين تحدثوا عنه من الكاتبين « انه كان نظارا في الكتب كثير التعليق عليها ، وقلما تجد كتابا في خزائنه دون ان يكتب عليه معلقا ، كما كان يرسل الى افذاذ العلماء في الشرق والغرب يدعوهم الى التاليف في موضوعات يقترحها ، اذ يجد المكتبة العربية في حاجة اليها ، ولم يكن انانيا يشغل نفسه بعائلته وبنفسه ، فيطلب الى المؤلفين تسجيل مآثر اجداده كما لمسنا عند كثير من الملوك والرؤساء ولكن سعة عقله قد ارتفعت به الى أوج باهر فنظر الى التاليف نظرات موضوعية ، اذ كان حريصا على أن يجمع لديه التراث الاندلسي على اوسع نطاق ـ وهذا مما يحمد له ـ فقد كلف أدباء كثيرين بالكتابة عن شعراء الاندلس وقضاتها وعلمائها وفقهائها ، ولعله يريد ان يحيي الثقة لدى الاندلسيين في عصره حين يجدون آباءهم قد تركوا من التراث العلمي ما يمتع ويفيد ، فيواصلون البحث نشطين !

وممن كانوا في حضرته من المؤلفين اسحاق بن سلمة وهو مؤرخ ضاعت اكثر آثاره وابن فرج مؤلف الحدائق بارشاد منه ، وخالد بن سعيد ومحمد بن الحارث الخشني والزبيدي وغيرهم من الافذاذ بل ان القارىء ليدهش حين يجد الحكم يضع للمؤلف فهرس كتابه ويرسم له خطة تاليفه ، فالزبيدي يقول في مقدمة كتابه عن النحاة « وان امير المؤمنين الحكم المستنصر بالله رضي الله عنه لما أختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم امر بتأليف كتاب يشمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الاسلام ثم من تلاهم من بعد الى زماننا هذا ، وان اطبقهم على بلادهم وزمانهم حسب مذاهبهم من العلم ومراتبهم .. فالفت هذا الكتاب على الوجه الذي امرني به ، واقمته على الشكل الذي حده ، وامدني رضي الله عنه في ذلك بعنايته وعلمه ، واوسعني من روايته وحفظه اذ هو البحر الذي لا تعبر اواذيه ، ولا تدرك سواحله ولا ينزح غمره ولا تنضب مادته (١) » .

ولا تظن ان الزبيدي قال هذا القول تزلفا للحكم دون ان يكون له نصيب من الواقع ، لان سيرة الحكم تدلنا انه كان أبعد الخلفاء عن الاهتمام بتزلف الوصوليين ورياء المفرضين ! ومسلكه مع فقهاء قرطبة يؤيد ذلك ابلغ التأييد ، فلو كان الرجل حريصا على انتشار الصيت الكاذب ، لاتخذهم ابواقا ينفخون في الدعاية لسلطانه ! ولكنه عارض جمودهم المتزمت ، ولم يحفل بما يتخرصون به لدى الناس ، وهم ما هم اذ ذاك نفوذ كلمة وامتداد صيت ! حتى ألبوا عليه الجموع وكادوا ينجحون في استئصاله لولا حيلته البارعة مع اخذهم بالشدة حيث اتسع الخرق على الراقع ، وانا أعجب لهذا الخليفة العالم البحاثة كيف استطاعت مآزق السياسة ومعاثر الدولة ان تهيء له من الوقت ما ينفقه في بناء الثقافة ! ووضع الفهارس لبعض المؤلفات ، وجمع الادباء من شتى الامصار وشراء الكتب من أبعد الممالك ، وحرصه على ذلك حرصا مدهشا ! حتى قال الكثيرون أن كتاب الاغاني بكافة اجزائه قد ظهر لدى الحكم قبل ان يظهر لدى المشرق ، لانه كان يقف على ادوار تاليفه وهو عنه بمنأى في قرطبة فعمل على احضاره بعد ان اثقل جيب أبي الفرج ! وأكاد أشك في هذا الامر لان مؤرخي ابي الفرج يذكرون انه لم يكن له في حياته من النباهة وبعد الصيت ما كان له بعد وفاته ، وان قيمة كتاب الاغاني لم تظهر للناس على وجهها الباهر الا بعد ان فارق مؤلفه الحياة .

نعم ، انه كان من جلساء الوزير المهلبي وصديقا لشعراء عصره وكتابه ورواته ، ولكن ذلك كله أضعف من ان يجعل الحكم في قرطبة يترصد خطواته في التاليف ، والامر مع ذلك موضع شك لا اكثر ولا اقل . لقد انتقل الادب الاندلسي في عهد الحكم من الاعتراف بالتلمذة الى المنافسة الحقيقية لاستاذه المشرقي ، ولم يأت التلميذ بجديد باهر يأخذ به أبصار استاذه ، ولو قد فعل لدارت معركة صاخبة كالتي نشاهدها في تواريخ الآداب بين الشباب والشيوخ او بين القديم والجديد .

ولكن التلميذ اراد ان يسابق استاذه في الاتيان بمثل ما لديه فقط ! والنتيجة مضمونة على كل حال ، لان الانتاج اذا كان متحد النوع ، متقارب المذاق ، فالفضل لصاحب التجربة الطويلة والتاريخ المديد ، والانتاج الحفيل والحق ان الشعور النفسي لدى الحكام من طبقة الناصر والحكم ، والادباء من كتاب وشعراء ، بأن أدب العباسيين هو النمط المحتذى في القول ، قد أوصد امامهم أبواب الابتكار ، فاذا أضفنا الى ذلك تشابه الثمرة أمر محتوم لا محيص عنه ولا محيد ، وما وجد من ضروب التجديد مما سنفيض في بعض بواعثه ، ومميزات لونه لم يكن مقصودا متعمدا ، ولكنه في أهون امره يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة المطردة !

واصحاب المقارنة بين الادبين يفيضون في بيان طرق الاحتذاء والوانه ، ويعددون اسماء المقلدين ومنازع تقليدهم ، ولهم في كل كتاب يرصد امواج الفكر الاندلسي ثبت حافل بالكتب والاسماء فهم مثلا يقولون ان ابا الفضل جعفر بن شرف القيرواني ألف كتاب الزمان محاكاة لكتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع ، وان كتاب الحدائق الذي وضعه أحمد بن فرج الجياني قد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الاصفهاني وان كتاب المظفري الذي كتبه ابن الافطس صاحب (بطليوس) قد عارض به عيون الاخبار لابن قتيبة ويقع في نحو من عشرة اجزاء كما ان هناك اكثر من ديوان شعري سمي بالحماسة مختارا على طريقة ابي تمام ، اما كتاب الانساب للسمعاني فقد عارضه الرشاطي المحدث الاندلسي بكتاب على غراره .. وتطول القائمة لو ذهبنا نستوعب فحسبنا ان نشير ! ولن نجد في باب الموازنة بين شعراء الموطنين اوضح من تسمية كل شاعر اندلسي بقريع مشرقي فابن هانىء وابن دراج كلاهما يوصف بأنه متنبي الغرب وابن زيدون بحتريه ، وابن خفاجة صنوبريه وابن طفيل عرف بابن سينا واشتهرت ولادة بعلية بنت المهدي وقيل لابن عبد البر صاحب الاستيعاب حافظ المغرب كما قيل للخطيب البغدادي حافظ المشرق .

اذكر ان الاستاذ محمد رضا الشبيبي علامة العراق وشاعره قد استقصى هذا الموضوع في كتابه عن أدب المغاربة والاندلسيين من ص ١٠ الى ص ١٣ ثم قال : « ان الاندلسيين قد استعاروا اسماء حواضر الشرق فأطلقوها على حواضر معروفة في الاندلس والمغرب فشبهوا اشبيلية بحمص وغرناطة بدمشق وفاس ببغداد الى غير ذلك، واحدثوا بلدة سميت البصرة تشبيها لها بالعراق » . ثم قال العلامة الشبيبي تعقيبا على ذلك « وهذا مما يذكر للمغاربة والاندلسيين ويدل على فضلهم وتواضعهم ضرب من الاعتراف بسبق المشارقة وتفوقهم في العلم والتعليم والبحث والتأليف » .

ويخيل الي ان السبق الزمني باكثر من مائتي عام بين ازدهار الحضارة العربية بالمشرق وازدهارها بالاندلس جعل الاعتراف بفضل المشرق امرا طبيعيا لا غرابة فيه يتقدم به اللاحق للسابق عن طواعية! ولكننا نتساءل أكان هذا الاعتراف اجماعا تنعقد عليه الكلمة ، ويشار

اليه في مجال التفضيل أم أن هناك من أدباء الاندلس علـــى بصرهم الناقد من ضاقوا به وانكروه ، ان لدينا نصوصا كثيرة لافذاذ مـــن الاندلس يحاولون بها ان يجعلوا الاندلس مع المشرق في قرن واحـــد بل ساروا الى ابعد من ذلك فجعلوا الاندلس راجحة والمشرق مرجوحا، واظهر من جال في مضمار التفاضل علامـــة الاندلس وفقيهها الاكبر وباحثها النابغة ابن حزم ، فقد عقد رسالة في فضل الاندلس وذكـــر رجالها ، اوردها المقري في الجزء الثاني من النفح فاستعرض ما اثـــر عن بلاده في مضمار التاليف من تاريخ وتفسير وحديث ولغة واخبار وطب استعراض من يرى السبق الظافر في اقليمه ثم ختمها بقوله :

« وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونايه من محلة العلماء فقد ذكرنا من تآليف أهله ما ان طلب مثلها بالاهواز وفارس وديار مصر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة فـــي هذه البلاد من العراق التي هي دار هجـــرة الفهم وذويه ، ومـــراد المعارف واربابها ونحن اذا ذكرنا ابا الاجرب جعونه بن الصمة الكلابي لم نباه به الا جريرا والفرزدق لكونه فـــي عصرهما ، ولـــو انصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الاوائل لا على طريقة المحدثين ، واذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به الا محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري » . ثم افاض ابن حزم فيمـــا يشبه ذلك عن العلماء حتى قال عن الادباء :

« ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا احمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شاو بشار وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بـــن عثمان الحاجب ، واحمد بن عبد الملك بن مروان ، واغلب بن شعيب، ومحمد بن شخيص ، واحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد الراوي ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه وحصان ممسوح الغرة » .

وانا حين اقرأ هذه الاسماء ـ مع ثقتي بابن حزم وسداد حكمه ـ اعلم ان جل شعر الاندلس قد ضاع لا محالة فكيف يكون هؤلاء فـــي منزلة بشار وأبي تمام والمتنبي ثم لا نعلم شيئا الا ما جمع مـــن ديوان ابن دراج !! على اننا نكاد نجزم بان الذي فقد على كثرته مـــن طراز ما وجد على قلته . فالحكم عن نوع الادب وتحديده لا يختلف ضياعا او وجودا ، فلئن غاب مائة ديوان ووجد عشرون مثلا ! فالمعين الدافـق سائل واحد في الحاضر والغائب على السواء وهو ما لا يحيد كثيـــرا بالحكم على اكثر ادب الاندلس بالمحاكاة والترديد !! على ان الدكتور احمد امين قد انتقد ابن حزم ومن لف لفه في معركة الموازنة والتفضيل انتقادا صائبا فهو يقول بالجزء الثالث من ظهر الاسلام (ص ١٢) :

« ومما لا شك فيه ان المنهج الذيسلكه ابن حزم والشقندي ليس منهجا علميا دقيقا ، انما هو كلام يقال فمن الصعب جدا الحكم بـــأن فردا اذكى من فرد ، فكيف الحكم بأن أمة اذكى من أمة ، بـــل انها اذكى من الامم ، ومسلكهما ـ يقصد ابن حزم والشقندي بعد ان عرض كلامه وهو ممن يدور في فلك ابن حزم ـ الذي سلكاه انهما يحكمـــان حكما كليا ثم يستدلان عليه بمسالة جزئية ـ فيقولان ان اهل الاندلس عرفوا بعلو الهمة او الاعتناء بالنظافة ، ويستدلون على ذلك بحادثـــة لرجل او من رجل ، فكيف يصح هذا في العقل ؟ انما المنهج الصحيح هو مثلا في توزيع مقياس الذكاء على الناشئين ، وعمل ذلك في أمـــة اخرى ، والمقارنة بينهما ، ونحو ذلك وبذا تطمئن النفس بعض الشيء عند النتيجة ، اما القول جزافا بأن أمة أذكى والاستدلال بـــأن فلانـــا الف كتابا قيما ، فبرهان قاصر ، ومحال ان تكون أمة كبيرة العـــدد كالامة الاندلسية لا ينتج منها علماء اعلام وادباء فطاحل » .

اعتقد ان الذين تعاظمهم سطوة الادب المشرقي من اعلام الاندلس يعبرون عن جانب نفسي من مشاعرهم فهم لدى انفسهم اعلام فضلاء ، ولكن ما يلمسونه مع مواطنيهم الاقربين من تنافس وتصارع يؤديان في بعض الاحيان الى جحود وكفران ، قـــد جعلهم يضيقون اولا بمـــا يصادفونه من عقوق ، ثم يوازنون انفسهم بمـــا يتخيلونه عـــن اعلام المشرق في سبحاتهم الحالمة ، فيظنون انهم فـــي مشرقهم لا يكابدون قليلا مما يكابدون ، فيشعرون بمرارة لاذعة لا تلبث ان تنقلب ثورة على أدب هؤلاء دون ذنب جنوه ! فابن حزم مثلا على جلالـــة علمه ورسوخ قدمه كان قطبا لمعركة طاحنة تحتدم بها الآراء ، ولـــه خصوم اقوياء لا يفتئون يمدون له اسباب الكيد والوقيعة حتى اعتقل فـــي منزله ، واحرقت كتبه ، وهو عند نفسه لا يقل مكانة عن الشافعي وابي حنيفة ومالك ولكن قومه ضيعوه ، ثم اخذوا يفاخرونه بالمشارقة فاندفع الى قوله السالف تحت تأثير ظروف قاهرة لا طاقة له باحتمالها ، ويـــدل على ذلك عند ابن حزم وآحاد من امثاله ، ما يترنمون بـــه من الشعر تنفيسا عن مشاعرهم المضطرمة كان يقول ابن حزم مثلا :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة   ولكـــن عيبي أن مطلعي الغـــرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع   لجد علي ما ضاعمن ذكري النهب
ولي نحـــو أكناف العراق صبابة   ولاغرو ان يستوحشالكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلـــي بينهـــم   فحينئذ يبدو التأسف والكـــرب
فكـــم قائل اغفلته وهـــو حاضر   واطلب عنه ما تجيء بـــه الكتب
هنالـــك يدرى ان للبعـــد قصة   وان كساد العلم آفتـــه القرب

وكان يقول ابن دراج القسطلي :

فان غربت ارض المغارب موطنـــي   وانكرني فيهـــا خليط وجيـــران
فكم رحبت أرض العراق بمقدمي   واجزلت البشرى علـــى خراسان
وان بـــلادا اخرجتني لعطـــل   وان زمانا خـــان عهدي لخـــوان

هذا والمثل القائل احب شيء الى الانسان ما منع يعبر عن حقيقة نفسية لا ندري كيف غابت عـــن كاتب حصيف كابـــن حزم ، فالادب الاندلسي في متناول اصحابه لا يحسون له وحشة او اشتياقا ، أمـــا أدب المشارقة فبعيد يسال عنه في لهفة وحنين ! ولو مد هؤلاء الناقمون انظارهم الى رجال المشرق لوجدوا ما لديهم هنا يماثل مـــا لدى القوم هناك ، فالمشارقة هم الآخرون يحنون الـــى روائع الاندلس ويلتمسون السبيل الى تنسم اخبارها واستظهار اشعارها ويتقبلون ذوي الرحلة منهم ـ في الاغلب ـ تقبل الارتياح والانشراح وقد حرص حكام المشارقة على تدوين اخبار اخوانهم رغبة في الوقوف عليها وسيرورتها بـــين الناس . فالفقيه الطرطوشي صنف سراج الملوك في مدينة الاسكندرية استجابة لرغبة حاكمها المامون البطائحي ، وابن القطاع قد صنف الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة ليرضي ادباء مصر والمحـــدث الاديب ابن دحية صنف كتابه الادبي المطرب في اخبار شعراء المغرب بناء على اقتراح الملك الكامل من بني أيوب ، وهناك مطرب آخر فـــي الادب غير مطرب ابن دحية سبق ان الفه الكاتب الاندلسي اليسع بن عيسى بن حزم بمصر ، استجابة لرغبة صلاح الدين الايوبي فاذا كان امراء المشارقة ووزراؤها حراصا على الادب الاندلسي فهم يرونه أهلا للتقدير والاحتفاء ولا يسمعون من أبناء بلادهم من ينكر عليهم ذلـــك ! هذا من ناحية ، اما تخيل مكانة العلماء في المشرق علـــى مستوى لا ترتقي اليه مكانة الاندلسيين في بلادهم فسراب يتخايل من بعيد دون ان تقع له العين على حقيقة فهل نسي ابن حزم ان البلاء هنا هو البلاء هناك ، وان ابا حنيفة على جلالة علمه كاد يموت تحت العذاب ، وان مالكا ضرب بالسياط وان ابن حنبل قد امتحن بما تزلزل به الجبال وان عشرات من امثاله جابههم الزمان بما اعتاد ان يفجع بـــه الكرام المرزئين من حملة الهدى والاصلاح .

ان زامر الحي لا يطرب كما يطرب الغريب الـــذي يدوي صيته قبل ان تقع عليه العين ! ولذلك صرخ ابن بسام في افتتاح الذخيـــرة مرددا صرخة ابن حزم في رسالة المفاضلة ، بل عبر عن حرارة كاوية

---

(١) طبقات الزبيدي ٩ـ ١٠ نقلا عن كتاب الدكتور احسان عباس عصر سيادة قرطبـــــة ص ٥٠ • (٢) الادب الاندلسي ص ٧٦ للدكتور جودت الركابي •

بلا قيود

فوق صدري تأرجحي يا رغاب ... جن فيه الهوى وضج الشباب
ثارت النار في ضلوعي حتى ... جف في الثغر من لهاثي الرضاب
يا ندى الليل هات دمعك برءا ... في دمي ثورة ، وفيه التهاب
لم يعد فيك يا اصطبار سلام ... بل عذاب ، ودمعة ، وانتحاب
ناد يا طير ان مررت مساء ... طاب وصل الهوى وطاب العذاب

اللاذقية — مها غريب

تلهب جوانحه حين هتف في الم لاذع .

« وما زال في افقنا هذا الاندلسي القصي ، الى وقتنا هذا من فرسان الفنين ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم ، طيب مكاسر ، وصفاء جوهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى بجفون المؤرق ، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الاعشى ببنات المحلق ، فصبوا علي قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والاصائل بعجائب الاشعار والرسائل ، نثر لو رآه البديع لنسي أسمه ، أو أجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح ، او تتبعهُ جرول ما عوى ولا نبح ، الا ان اهل هذا الافق ابوا الا متابعة أهل الشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، او طن باقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، واخبارهم الباهرة ، واشعارهم السائرة مرمى القصية، ومناخ الرذيلة ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ففاظني منهم ذلك ، وافقت مما هنالك واخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسينات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ، غيرة لهذا الافق الغريب ان تعود بدوره اهلة، وتصبح بحاره ثمارا مضمحلة، مع كثرة أدبائه ودفور علمائه ، وقديما ضيعوا العلم وأهله ، ويا رب محسن مات احسانه قبله ! وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص اهل المشرق بالاحسان » .

نفثة مصدور بلا شك ! ولكن تعليلها واضح اسفر عنه ما كتبناه آنفا بصدد مفاضلة ابن حزم . ولعل من أثرها الحسن ان حدت بابن بسام الى تسطير الذخيرة فقدم لنا تراثا خالدا يذكر له بالثناء .

على اني اعجب لبعض الباحثين لماذا يجعلون نتاج الاندلس يقف وحده امام نتاج بغداد في اخصب عهودها الزاهرة ، ولا يحاولون ذلك مع أدب كأدب مصر في عهد الولاة وابن طولون والفواطم او ادب الشام في عهد بني حمدان او أدب ما وراء النهر من بلاد فارس وخراسان ! لماذا تقف الاندلس وحدها موقف المضاهاة والمقارنة ، وهي بعد اقليم لا يختلف عن غيره من الاقاليم ، ثم الا يكون ذلك دليلا على سمو الادب الاندلسي وازدهاره اذ استطاع ان يبلغ ما لم يبلغه ادب مصر او الشام او ما وراء النهر حيث لا يقف نتاج اقليم منها امام أدب بغداد .

قد يقال أن قرطبة كانت عاصمة خلافة أموية كما كانت بغداد عاصمة خلافة عباسية ، وهي بذلك ترفع نفسها الى مستوى المنافسة ولها ان تتحمل تبعة النتائج كما تجيء ، ولكن القاهرة أيضا كانت عاصمة خلافة فاطمية تنافس بغداد وتهددها في أمنع معاقلها الحصينة، وكان لها بيت الحكمة على ضفاف النيل منافسا خزانة الرشيد والمامون على ضفاف الفرات ومكتبة الناصر والحكم بالزهراء ! فلم قصر الادب المصري أن يطمح للمباهاة ! ان السبب واضح لا يحتاج الى جهد ! فالادب العربي في مصر الفاطمية كان مقصورا على الخاصة من ذوي المناصب والدواوين أما الادب العربي في الاندلس فقد كان نهبا مشاعا للكثرة الكاثرة من طبقات الشعب (٢) وفيهم الزراع والصناع والتجار ومن يمتهن الحرف المتواضعة فتعمل يده ويفكر عقله . وتترنم لسانه ، وحدث بعد ذلك عما يجيش به الادب من لجج ترفدها جداول متكاثرة لا يهدأ بها تيار او تقف دونها اسداد .. بذلك كله وبغير ذلك أيضا استطاع نتاج هذا الاقليم المتأدب ان يزخر ويفيض .

يقول اساتذة الادب المقارن ان من العوامل الاولى لعالمية الادب وازدهار تأثيره في كثير من الآداب الاخرى شعور ذوي العقليات الناضجة بعدم كفاية ادبهم القومي في التعبير عن رغبات النفس ، ومبتكرات الحياة فيتجهون الى أدب آخر يجدون لديه دما جديدا ينقلونه او ينقلون منه الى أدبهم المحتاج ، فتجد به روح اخرى ويغمره نشاط يعيد اليه بعضا من فتاء النفس وشباب الروح ، ولذلك يقول (جوته) الشاعر الالماني الطائر الصيت « ينتهي كل أدب الى الضيق بذات نفسه اذا لم تات اليه نفائس الآداب الاخرى لتجدد الخلق من ديباجته » .

وما يقال عن الآداب المختلفة في دنيا الادب المقارن ، يقال كذلك عن أدب الاقليم الخاص بين آداب الاقاليم الاخرى في اللغة الواحدة والادب الواحد ، فقد شعر ذوو الملكات العالية بالاندلس بحاجتهم الماسة الى أدب المشرق وقوي هذا الشعور ما لمسوه فعلا لدى الادب المشرقي من نفاذ وقوة وتاثير ، فعكفوا عليه عكوف من يراه غاية الامل ، ومرتقى الاعجاز ! ولم يجل في أذهانهم ان يتيامنوا كثيرا عنه الى غيره او الى نفوسهم الخالقة اذ يسبرون اغوارها ويكتشفون مجاهلها فتسعدهم بالجديد ، وكان النتاج المشرقي من الغزارة والتدفق والموالاة بحيث لم يترك بريقه مغازلة الابصار ، وخطف القلوب ، واخذت المؤلفات المشرقية تتتابع لتحتذي ، ومهما كان تاثير هذه المؤلفات فان احدها وهو يتيمة الدهر للثعالبي قد بلغ بتاثيره في صياغة النثر ، واتجاه النقد وكتابة التاريخ ما لم يبلغه اثر سواه .. ونحن نستأذن القارىء أن نبين له ذلك بما نستطيع به ان نخدم قضية التاثر والتاثير .

الفيوم ـ دار المعلمات — محمد رجب البيومي

ليلة ساهرة

بقلم بولس سلامة

* * *

وفي الخامس عشر من أيلول (١) راينا خدم الفندق في اهتمام بالغ فسألنا فقيل لنا سيقام ، هذه الليلة في الفندق حفلة ساهرة ، يتوافد اليها رجال الطبقة الراقية، وما ان ازفت الساعة الثامنة حتى طفق المدعوون والمدعوات يؤمون الحديقة مثنى وثلاث ورباع . وكان أسبقهم الفتيان والفتيات ، مرسلي أصداغ او مطمومات شعر غلاميات عاريات الصدور والظهور ، باديات السوق الى ما فوق الركب .

وكانت الليلة قارة، وقد مزقت الغيوم ريح الشمال، فكان لها في الاجساد مثل سفع السياط ، فاتقيناها وتلففنا بالمعاطف . وكنت قد حسبتني الوحيد الذي بردت مفاصله ، فاذا بأسعد ومسعود ، وهما في حوالي الخامسة والاربعين من العمر ، في مثل حالي . فقلت ويحكما اني لفي سن أبويكما فهل فارقكما دفء الشباب؟ أفلا تنظران الى هذا المؤنث العاري ؟ فقال مسعود متهكما : تدفئهن حرارة الايمان ، أو انهن ولدن في سيبريا ، والحرارة كما تعلم نسبية ، فهن لا يجدن من البرد ما نجد . قال أسعد بل هن لبنانيات عصريات ادخرن من الطاقة الانثوية ما يكفيهن حتى ساعة الرقص ، ثم تسعفهن الخمرة فيرقصن حتى منبلج الصباح ، وتسكت شهرزاد عن الكلام المباح وغير المباح .

واتجه نحونا شاب يدعى سليمان البغدادي ، له بأسعد صلة مالية ، فسلم علينا وجلس وانضمت صاحبته الى زمرة الرفاق . فقال أسعد أهنئك بها فلعلها عروسك قريبا ان شاء الله . فقال سليمان لا يشاء الله ان أتزوج ابدا . قال أسعد ولم ، والمال موفور لديك وانت في عنفوان الشباب . فقال ولم أبهظ عاتقي بتكاليف الزواج، والغنم بين يدي ، ولا غرم علي ، والفتيات يطلبنني أشد الطلب كما ترى .

فقلت ولكن المحصنات أوفر عددا من اللائي تغررون بهن انتم شباب اليوم فتداولوهن تداول النقد .

فالتفت الي وقال : يا عم انا اعرفك وان كنت بي جاهلا ، ولقد طالعت معظم كتبك ، واني على احترامي لك لاصارحك بأنك امسيت في معزل عن شؤون هذا الجيل ، فأنت غريب عن أورشليم .

قلت يبدو لي من جملتك الاخيرة انك تسمع الانجيل فلم لا تعمل به ؟ قال نعم ولكنني أطالع في كتاب الحياة فوق ما أطالع في الكتب . ولو انك علمت من اسرار هذا العصر ما أعلم ، لوجدت من المصاعب مثل ما أجد في اختيار زوجة خليقة بتربية اولادي . فان امي ، عفا الله عنها ، لم تحسن تأديبي وتأديب اخوتي ، وأنا أصغرهم ، فنشأنا بعيدين عن واقع الحياة وجرعنا ابانا مثل غصص الموت ، فما قابلنا نصائحه بسوى العصيان والخذلان فقربنا أجله، وهو الذي أظلنا جاهه حيا وصاننا صيته ميتا ، وما كنا بذلك خلقاء ، ولم يصح فينا قول الشاعر ومن يشابه أبه فما ظلم ، فما شابهناه بشيء. ولقد اعقبتنا غوايتنا ندما ، ولكن هيهات هيهات ان يرد الندم ما قد فات . وها نحن اولاء بتنا نخاف الزواج ونرتضي بالمتعة العابرة . ولم يسعدنا الحظ بعد بفتاة تتوافر لها القناعة ببساطة العيش . ولقد نشدتها فأخفقت ، وشهدت من المآسي التي تردى فيها أصحابي ما صرفني عن الزواج ، فمنهم من أقدم على قران مبكر بعد ان تراضى وصاحبته على الفقر . فلما خفتت صرخة الجنس وداخلهما السأم ندب حظه لانه لم يقترن بثرية ، وتحسرت لانها لم تقترن بصاحب سيارة يقودها الى المتنزه .

وبكر آخر فاقترن بدميمة . وكان شابا وسيما ، فأفاق من شبابه ، فراعه أنه أخطأ الصيد وأن أسراب الحمام يقفن على دوحته ، ولا سبيل له الى التفلت من براثن البومة التي توهمها حمامة ، فهجر العش وأصبح غرضا للرباح تهيض قوادمه وخوافيه فيتردى حينا كسير الجناح ، وحينا مهلوب الذنب ، وطورا منكس الراس ملتوي المنقار فيشمت به من كان دونه . وعجل صديق آخر في الزواج وهو لم يستكمل فتوته بعد ، فلما نضج وتبوأ من المجتمع مكانا مرموقا رأى الهاوية السحيقة التي تباعد بينه وبين القرينة ، فأدرك حينئذ معنى جهنم التي لا قرار لها .

واعرف ثالثا من المعجلين ، وكان مشبوب الذكاء وثاب البديهة ، متسع الافق يضحك له المستقبل ، فضحك من نفسه واقترن بفتاة بلغت من الغباوة منحدرا يكاد يكذب ارسطو بكون الانسان حيوانا ناطقا ، لولا ان لكل قاعدة شواذ ، منها ان كل حيوان يحرك فكه الاسفل عدا التمساح ، وكانت الفتاة من نوع التماسيح مجردة من الفهم والشعور والخلق السوي ، فما تمت الى الانوثة بسوى الحس الجنسي . فنهاه الناهون عنها مخلصين له النصح والمودة ، وارشدوه الى فتيات رفيعات التهذيب والمحتد ، فتعامى عن الشرك فوقع فيه فتلجلج فخانت فهجر .

---

(١) من كتاب « ليالي الفندق » تحت الطبع ، (٢) في النسبة الى ترتوف Tartuffe صاحب موليير الذي يجسم النفاق في الرواية المشهورة .

ولقد صبر على بلاهتها صبر أيوب على بلواه ، فكان اذا ضمهما مجلس حافل بالمثقفين والطبقة الراقية ستر غباوتها فابتدر الحديث والجواب ، وقام المبتدأ مقام الخبر .

وانه ليطول بي سرد المآسي العائلية ، ولكن ثق ان في المخادع الزوجية من المهازل والكوارث الخفية ما يقف له شعر الرأس . ولا يغرنك ما تلقاه من زوجين يسيران متساندين ، متشابكي الذراعين ، فلو شهدت اشتباكهما في البيت يتبادلان خفق النعال ، أو يتقاذفان في الجواب والسؤال ، لوليت هاربا عن ساحة القتال ، فاذا رأيت زوجين يتبادلان بمسمع الناس وبصرهم كثيرا من القبل، فتوهمت انهما يطيلان شهر العسل ، فاعلم أن وراء ذلك تمثيلا وتمويها لاغراق رائحة البصل . ذلك ان الزواج الحق هو محبة متبادلة وتضحية متقابلة ، فان شالت احدى الكفتين اضطرب الميزان وذر قرن الشيطان وربما كان مرد ذلك الى قلة الايمان ، في عصر كفر بالله وبالانسان . قلت لقد وعظتني ولكن لو نحا الشباب نحوك لانقطع النسل . قال ان المخاطرين كثر ، والشهوة الجنسية التي تعمي البصائر وتعميه الابصار كفيلة باستمرار النوع . فلا القديس بولس أفلح في اشارة التبتل ، ولا الرهبانيات ، ولا القديسون ولا القديسات ، ولا شوبنهور وان اختلفت بينه وبينهم الغايات ، فخفض عليك أمر الذرية ، فانها موصولة ما دام على الارض اوادم وحواءات ، ولئن حمل المسيح خطايا العالم فان عاتقي الواهن لينوء بحمل التبعات . قلت : اذن فلا تغرر بالفتيات .

قال لست والله بالمغرر الذي يراودهن عن انفسهن ، فما وعدت واحدة بالزواج ثم اخلفت وعدي ، اما البتولية فلا سبيل اليها ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها . ولأن اكون خاطئا صادقا احب الي من ان اكون مرائيا منافقا ، واوثر أن اكون سامريا يعترف بضعفه ملتمسا الغفران على أن اكون فريسيا مباهيا بمنزلتي وقداستي فاضيف الى خطاياي أثقلهن في الميزان اي الترتوفية (٢) .

وبينما نحن آخذان بالحديث ، والمدعوون يتوافدون شخصت العيون الى سيارة وقفت وترجل منها زوجان. وكان الرجل موصول الابتسام فظننت ابتسامه خلقة لقصر في شفتيه ، وبروز اسنانه المتعاظلة المشرفة على ذقنه المستديرة على شكل (النون) . فتوسمت به خيرا لأن بعض المتأدبين يستبشر بالنون التي افتتح بها القسم « ن وَالقلم وما يسطرون » ويحسبها أساسا لشكل بعض الحروف كالباء والتاء والثاء والفاء والقاف والكاف واللام والسين والشين والصاد والضاد ، فهي في رأيه نون معدلة . أما الدال والذال والراء والزاي فهي انصاف النون ، وانها لنظرية طريفة ، ولو من باب الفكاهة .

فقلت لاسعد اتعرف الرجل؟ وهل ابتسامه مقصود؟

قال بلى وهو سلاحه الماضي للذياد عن شخصيته الضئيلة. قلت حسبته البشاشة والتعبير عن طيبة القلب. قال بلى هي ابتسامة الزلفى والاسترضاء ، أما قلبه فمفعم بالدهاء والخبث . قلت أفلا ينطبق عليه قول المتنبي :

اذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن ان الليث يبتسم

قال : واني له تلك الاسدية وفؤاده ثعلب ، وبأسه باس ارنب . قلت فما مركزه الاجتماعي ؟ قال : كان أحد الحاكمين لسنين خلت . قلت اذن لقد كان حاكما عدلا . قال مسعود بل كان محكوما عليه ، وكانت زوجته هي الحاكمة .

قلت : بئس العبد فكيف يستطيع الوصل والفصل في قضايا الناس ، من كان الفصل في يد امرأته تسرجه وتلجمه ؟ قال انها على ما تراه فيها من انوثة لمراة مترجلة ، تصدر الاوامر والنواهي باسم زوجها تلفونيا الى الدوائر ، فتديرها على من تشاء ، حضر زوجها أم غاب فلا يجرؤ على صدها وتكذيبها .

قلت : او كان الموظفون يأتمرون بأمرها ؟

قال : كان سوادهم أذلة جبناء لا يرتفع لهم صوت ، ولا يستيقظ ضمير ، فمن سبق في التماس شفاعتها غلب وفاقا للمثل اللبناني المعروف : (من سبق شم الحبق) .

قلت ان هذه الشفاعات لأدهى ما في لبنان ، وكأين من مجرم يستشفع زعيما او نائبا او ذا نفوذ ديني فيشفع ارتجالا بدون ما تقصي حقيقة . ويتناسى اولئك الشفعاء المجرمون بالمشاركة ، الحديث الشريف « اذا جاءك مفقوء العين يشكو فلا تتسرع بالحكم لعل خصمه مفقوء العينين»

قال مسعود : ان أمثال هؤلاء المجرمين يكرعون البحر اتراهم يغصون بالساقية ، فلقد تقلص الله من ضمائرهم أفتراهم يلتفتون بعد ذلك الى كتاب منزل او حديث مسند ؟ .

قلت فما كان السبيل الى هذه المحاكمة التي ترتكب الاوزار فتؤيد المجرمين وتخرب الديار ، وتنزل بالبيوت الدمار ، كل ذلك بمكالمة هاتفية ، فتقضي على الاخيار وتسمع فيهم وشاية الاشرار ؟ الرشوة أم سواها من المفاتيح ؟ . .

قال : لم يكن لبغيها ضابط ، بيد ان أفعل شيء في نفسها كان دمع التماسيح ، فلو أتت واحدة من بنات جنسها واستعدتها على المسيح فبكت وتظلمت واشتكت لسارعت الى معونتها بلا وازع من ضمير ، ولا زاجر من أناة . ولعمري ان جناياتها على الحق لتبدو جناحا اذا قيست بمثالب الرجال أو « أشباه الرجال الذين لهم حلوم الاطفال وعقول ربات الحجال » أو بما يفتريه أرباب الوجاهات الدينية والزمنية ، فاذا تذكرت حنان وقيافا

وبيلاطس وهيرودس ومن جرى مجراهم ، ادركت ما للاسخريوطي من اشياع واتباع . وايقنت أن هذا العالم مملكة الشيطان كما قال السيد المسيح ، وان الركب التي لم تسجد للبعل نادرة كما أشار اليها يوحنا في رؤياه .

وجلست الحاكمة على مقعد جلسة هي الى الاستلقاء أدنى منها الى الاستواء . وتيامن زوجها فأومأت اليه أن يتياسر ففعل . وانما قصدت أن تذله لا أن يلي منها جهة القلب الذي تعذر عليه ان يلجه اذ لا ينفتح قلب المرأة الا لمن تهابه لرجوليته ، او تهيم به لجماله ، او تأذن لـه في الوقوف على عتبة فؤادها لسخائه وكثرة ماله، او يجتذبها ذكاؤه ، او تكون (مازوكية) فيقسو عليها فتجري في أثره ، او يستكبر عليها فتكون هي التي تراوده عن نفسه، كما وقع ليوسف بن يعقوب ، ولم يكن صاحبنا الحاكم المحكوم عليه في شيء من ذلك .

وانتظرت ان يحيط بها وبزوجها زمرة من أصحاب الامس ، ولكنهم كانوا يسلمون عابرين ، فما يقفون الا بمقدار ما يرفع العتب عنهم ، فقلت ما هذا يا مسعود ؟

قال انما الناس عبيد القوة ، فلما تولى سلطانهما ، وانتثرت عناقيد الكرمة فلم يبق الا الحطب ، نصلت الصداقات وباخت الزلفى ، وكفت الالسنة المداهنة ، وتلك عقبى من ضعف كيانه فغطاه لقبه وايده منصبه ، فلما زالت نعمته شمت به الشامتون ونأى المقربون ، أفلا ترى أن الذهب الدفين اذا استخرج وصهرته النار ازداد توهجا والقا ؟ وان الورق النقد اذا لوحته النار صار الى رماد ، ذلك ان للذهب قيمة أصيلة جوهرية ، وان ليس للورق الا قيمة نسبية يمحوها الزمن اذا طمس الرقم . أفلم تر الى صور السلاطين الخواقين كيف انطوت ، وكيف ان الواح رافايل ودي فنشي زادها القدم سناء وغنى ، فباتت اطرف واعز مقتنى ؟ قلت بلى قال وكذلك هو أمر ذوي السلطـان .

وحان وقت الرقص فصدحت الموسيقى وكنت جاهلا بالالحان فاستعنت بمسعود ، وكانت الاوركسترا افرنجية ، والعازفون بالآلات من مختلف الالوان والاقاليم، فمنهم من أرخى صدغيه الى منتهى الحنك ، ومنهم من أرخى سباله واطلق لحيته ، ومنهم من ترك عنفقته وأخفى سائر الشعر ، ومنهم الامرد الذي لم يطر شارباه. وتوسط الراقصون الحلبة ، فقعد مني مسعود مقعد المعلم من التلميذ لما رأى من استغرابي ، فقد توالت على مسمعي الحان تذكر ببلبلة الالسنة لما تهافت برج النمرود ، فدار راسي من غير نشوة ،و كاد مسعود يضحك ولكنه أمسك احتراما لسني .

فقال ان ما تسمع من الحان وتشهد من رقص ، له معجم غريب ، فهل سمعت قبل اليوم بالهاليغالي واللابومبا والماديسون والتشيمي والتشيكن والتانغو والروك أندرول والتشاتشاتشا والسامبا والرومبا ؟

قلت أما السامبا فنعم وكذلك التانغو وله المرتبة الاولى في الالتصاق واسناد ذقن على كتف ، واقتراب خد من خد ، وفم من اذن ، واعلم انه وان كان سبيلا الى الخطر في وضوح النور فانه لاشد خطرا في الستاريو ، حيث تخفت الانوار ويسرع الى القلوب الدوار ، والى المفاصل الانهيار . أما الروك اندرول فقد سمعت انه يداخله من جنون الحركة ما أودى بحياة بعض المأفونين . ولكن قل لي ما هذه الرقصة التي تبلغ فيها الميني جيب ذروتها في الكشف والاستعلاء ، وفقدان الصواب والحياء ؟ قال هي رقصة الجيرك . فقلت ما أغزر ما يرفدنا به الغرب من غرائب . قال أسعد وما أكثر ما تتهم به الغرب من فواحش . ثم التفت الي مسعود قائلا انسيت الحفلة الخيرية ، والرقصة الشرقية التي شهدناها في الشهر الماضي ؟ قلت ماذا قال أسعد ؟

في أول الشهر الفائت دعيت ومسعود الى حفلة خيرية ، فدفعنا ثمنا باهظـا لبطاقتي شرف ، وتلـك البطاقات لا تشرف ولا تضع ، ان هي الا احدى البـدع ، من أكاذيب المجتمع . وبحكم البطاقتين اقتادنا الدليل الى مركز الصدارة، وافتتحت الحفلة رئيسة الجمعية بخطاب أعده لها خبيث تعمد الهـزء بالرئيسة الشفاء ، فشحن الكلم بالسين والراء ، ولـم يضبطه بالشكل ، فتعثرت الخطيبة أيما عثار فصحفت ولحنت وأعجمت ، وكانت وهي القروية المولد قد تلقنت دروسها فـي العاصمة ، فأعرضت عن العربية وازدرتها ، وتشبهت بالباريسيات فاتقنت اللثغ فأصبح التقليد فيها طبعا .

قلت انها لـم تنفرد بالتصحيف واللحن ، فكذلك القول في بعض الوزراء والنواب ، وان توحدت النتيجة واختلفت الاسباب .

قال أسعد : وعقب الخطاب رقص كان أبعده من الخلاعة الفولكلور اللبناني . ثـم توسطت الحلقة راقصة محترفة تدعى في اصطلاح العصريين نجمـة ، ولعلها لا تشبه من النجوم الا الزهرة مـن جهة الموبقات التي اشتق منها داء الزهري ، وتلقاها الحاضرون بعاصفة من التصفيق لا يستقبل بمثلها أخطب خطباء الشرق أو أشعر شعرائه ، فلا ينالها الا المطربون يهزون القلوب فتنطلق الآهات من الحناجر ، فترتج المقاعد بالقاعدين ، وربمـا انتصبوا وقوفا اذا سرت الحميا فـي المفاصل ، وزاغت الافئدة ، ودارت المحاجر والارض بالشاربين ، فان صح ان الغناء رقيته الزنى فالراقصات الخليعـات الشرقيات هن بابه الارحب . وبرزت الغانية ترتدي أدعى الازياء الى الاغراء ، فكأن تيارا يجري من جفونها السواحر ، فيوقظ في عيون الناظرين ما يوقظ مـن الشهوات الدواعر . وتخلعت كأن لا رابط بين أعضائها ، وتلوت كأن لا فقـار لها ، او كأنه فقار افعى تتحوى ، تغمض عينيهـا كمن يحلم ، ثم تفتحهما كمن لسعته عقرب ، وقـد كحلتهما

فذنبت فهما بين فتور المهوم واحتدام الشرر .

وارسلت شعرها ليلا غدافيا يتدلى على ربوتين من عاج . تبسم حينا عن مثل فلقة الصبح ، وتعبس ثم تنقض انقضاض البازي فتراوح بين الامل واليأس ، وتدير جسدها في الجهات الست كأنها ركبت على خيزرانة . وتستدير استدارة الخذروف واقفة على أصابع قدميها . وتزفر فيهتز نهداها كمن يتفرج من كرب ، وتبسط ذراعيها في الهواء كأنها سابحة او تنشد المطلق ، ثم تنهد الى الوراء وتعتمد سلامياتها مرتكزة على اخمصيها ، فكأنها القوس الذي يرمي به كوبيدون او الجسر الذي تعبر عليه الخطايا . ثم تهب هبة واحدة وتأخذ بذيل ثوبها وتكشف عن ساقها ، وتمر مرور ملكة سبأ فوق الصرح الممرد وتهتز كأنها جان ، ثم تضرب الارض بقدميها فتثير الجماد ، ثم تتكسر وتمايل ميل الحداد على الكير ، وتثنى تثني الامالبد عبثت بها الريح.

فاذا ترنحت الاوتار ، وبلغ سلم النغم اقصاه ، قفزت في الهواء قفزة سكبت فيها قواها فانهدت وارتمت على الحضيض كأنما غشي عليها فشخصت اليها الاحداق، وانحبست الانفاس لحظة فاذا هي تنهد وتشب شبوب النار وتدور في الحلقة وتخر ساجدة على ركبتيها منكسة الرأس .

ثم التفت الى أسعد قائلا : ما رأيك في الراقصات الشرقيات اللائي لا يتعدين ان يعرضن أجسادا وفسادا من غير فن والراقصات الغربيات اللائي يرقصن الرقصات الكلاسيكية المعبرة ؟

فقلت : الجواب معاد بالسؤال .

وتوافد الناس ليشهدوا الرقص والسمر حتى امتلأت المقاعد وظل بعضهم وقوفا . واقتربت مني امرأة في مثل سني قائلة : الا تتذكرني ؟ فتفرست فيها غير يسير فقلت : اظن فلانة . فقالت كنت احسب ان لي في بالك زاوية. فهلا ذكرت ان سهرة جمعتنا في بيت فلان ، يوم كنت طالب حقوق ، وغنيت أنا ليلتئذ فقلت انت : يا سبحان الله ما أشبهها بالمغنية الفرنسية صاحبة المندولين ؟

قلت بلى الآن تذكرت ، وهذا أمر يعود الى نحو من اثنين واربعين سنة فقالت أعوذ بالله ، فأنا اليوم في الخمسين ، قلت اذن كان لك من العمر ثماني سنوات ، فارتبكت وتغيظت وقالت : يزعمون انك جيد الحافظة ، ويظهر انها ولت كما ولى شبابك ، فلقد تجعد وجهك وغاض البريق في عينيك، وشاب شعرك ، قلت : وصرت أعرج . أما أنت يا سيدتي فما ازددت الا جمالا ، مد الله لك في الشباب وبسط في العيش والفتنة الدائمة . ولكني اقيم لك الدليل على قوة حافظتي . قالت : هاته. قلت : انك لم تسأليني ليلتئذ عن خبر الفرنسية صاحبة المندولين . قالت : كلا ولكني أفترض ان صوتها كصوتي رخيم ، ووجهها كوجهي وسيم ، قلت اذن فاسمعي القصة كاملة . فلقد تغرب شاب الى باريس في طلب العلم ، وكان رزينا جادا في الدرس عازفا عن الملاهي ، مقتصدا بمال ابيه يحاسب ضميره في ما ينفق فلا يقامر ولا يسكر ولا يفجر ، عالما ان أباه الاديب قد أحرز المال بعرق الدماغ لا بعرق الجبين فقط ، فلقد أبت عليه نفسه ارهاق والده بالديون . وكانت في الفرفة التي فوق غرفته امرأة دميمة ، عنست فأرادت ان تتلهى فاقتنت بضعةكلاب ما تنفك تتنابح وتتهارش، فتنغص على الطالب درسه وهو أحوج ما يكون الى السكون . فسطر لها رسالة ، فتلطف وتوسل اليها أن تنقذه من جحيمه فرقت له — على غير عادة العوانس اللائي ينتقمن من الرجال — وباعت الكلاب واقتنت مندولين وطفقت تملأ عشاياها بالغناء ، وكان صوتها انكر من نعيب الغربان وشحج البغال فكتب اليها الشاب : اعيدي الكلاب . فغضبت محدثتي وقالت لعن الله ذاكرتك وانصرفت واستغرقنا نحن الثلاثة في الضحك . فقال أسعد بالله من المرأة فانها تعيش على كلمات ثناء تسمعهن من رجل ، او كلمات مزاح تحملهن على محمل الثناء .

ووصل في تلك الساعة احد حكام المنطقة الاداريين ليتوج الحفلة بحضوره ، فلم يأبه له الا صاحب الفندق تأدبا ومجاملة ، لا ابتهاجا بمقدمه ولا احتراما . فسألنا من حولنا ، فقالوا لم يبق في الصدور بقية من هيبة لهذا الحاكم منذ عاشر فلانا المشهور بمعايبه واستطالته على الاكارم بالسعايات والدس والتلصص حتى بات الناس يعافون تسمية اولادهم باسم ذلك المجرم لئلا يكون في الاسم عدوى . وهذا نهج سلكه أهل هذه المنطقة في نظرتهم الى الحكام ورجال الدين واصحاب الوجاهات ، يقيسونهم بحاشيتهم واصحابهم عملا بالقول المشهور « قل لي من تعاشر أقل لك من أنت » « وان القرين الى المقارن ينسب » « وان الطيور على أشكالها تقع » الى آخر هذا الباب وما يقابله من الامثال السائرة في لغات العالم جميعا . وربما كان الحاكم نزيها ولكن الريب يتطرق الى النفوس ، ويهون أولئك الزعماء في الانظار ، فان لم تجاهرهم الخاصة ولا العامة بما في النفوس من سوء آثارهم تهامسوا في ذلك فيما بينهم . فاذا كان مدار الريبة قاضيا يحكم باسم الشعب اللبناني منقادا لامثال هؤلاء العشراء الشفعاء الساقطين لحقت به القذارة . ولا يبرئه تذرعه بحسن النية ، فرب غفلة قتلت بريئا ، أو دمرت بيتا ، أو شردت عائلة . واذا كانت قلة الاحتراز عنصرا من عناصر العقوبة فخليق بالقاضي أن يكون أول المحترزين .

ومما يفوت الحاكمين والوجهاء انه اذا تنكر لهم الدهر ، كان الذئب الذي لبس لهم ثياب الحمل أول من يعمل أنيابه ومخالبه في جلودهم ، ويفضح من الاسرار

ما كتم اذ لا خفي الا سيظهر ، ولا مكتوم الا سيعلن ولو بعد حين . حينئذ يعلم الذين اخذهم دوار الحكم واغتروا بما لا يغتر به سوى مغفل أنهم غبنوا فغدروا ، فاذا خلوا الى ضمائرهم ــ اذا كان الفساد لم يتأكلها برمتها ــ خجلوا ولزمهم الصغار ، واورثوا أبناءهم العار .

وبينا نحن كذلك خرج من حلقة الراقصين شاب طوال نحيل الجسم أسمر ، مشى الينا مضطرب الخطى زائغ العينين ، وبيده كأس وسكي قدمها لاسعد ، وعزم عليه ان يشرب فاعتذر ، ولكن السكران لا يعذر فرشف أسعد رشفة دون حسوة الطائر . ثم نهض وأخذ بذراع الشاب ، وتخلى له عن سريره في الفندق ساعة ريثما يصحو من خماره . وعاد أسعد فسألته من هذا الغنج المزجج الحاجبين ، الضامر الكشحين ، المخنث الهزيل ؟

قال بالله لا تزد فهذا نجل زميلك الشاعر الذي شرف الادب وملأ بصيته الاقطار ، وهذا ابنه السكير الفاجر بطل القمار . وهو يكاد يكون أميا فلم يستقر في مدرسة ولا قر له قرار . ولكان أبوه رفد الشعر والفكر بضعفي ما رفد ، لولا هذا الولد الذي غمه وقض عليه مضجعه ، فضعضع ذهنه وفل غرب قلمه ، وانضب كثيرا من دمه . ولطالما نصحت له أن يرعوي فما أجدى نصح ولا عصم شرف محتد وصيت والد . ولقد أجابني مرة ان والده رجعي محافظ ، وانه وهو الشاب الانيق يريد ان يكون عصريا (مودرن) . قلت : فبماذا اجبته على وقاحته ؟ قال : تملكني الغضب . فقلت : بعدا لهذه (العصرنة) وان هي الا المجون والخلاعة فأين انت أيها الارعن من أبيك الجليل ؟ ولقد كان معلم جيل وأنت الجاهل الضليل . أفما كفاك أنك اوهنت صحته ، واحرقت مهجته ، وبددت ماله ، وما جمعه الا حلالا ، حتى تتهمه بالجمود والرجعية؟ فماذا اكتسبت أنت سوى الخزي والهوان الا لا أكثر الله من أمثالك يا مطية الشيطان والعوبة النسوان وعشير الاراذل ، فلو غفر لك أبوك ، فان العدل الالهي سيحاسبك حسابا عسيرا .

وسمعنا ضوضاء انطلقت من وراء حلقة الراقصين فقام مسعود يستطلع الخبر . وعاد يقول : هذا العكاوي يطلب جمرة (لنرجيلته) ، فلا يلبيه الخادم فيغضب ويصخب .

وكان العكاوي هذا مرافقا (قواصا) لاحد القناصل في عهد المتصرفية ، وهو يومئذ شاب تام الخلق ، مبرم العضل ، نظيف الهندام ، يرتدي البزة المقصبة ، ويتدلى على جانبه سيف مذهب الغمد والفرند والمقبض . ولقد كان يرافق القنصل في عربته ، ولطالما شهد المواكب والابهة والمآدب ، فكان متلفت أنظار الناس أكثر من سيده . وكأين من وجيه توسل به فكان شفيع خير أنوفا غير مستكبر ، ولا طالب رشوة ، يخلص الخدمة ويكتفي بالشكر ، معتزا بشهامته ، وبانه رفع الحيف عن مظلوم ، وكف الظالم عن جوره . ولقد بلاه سيده فعرف منه الصدق والنزاهة والشجاعة وسجايا اللبناني الاصيل ، فما كان يرد له طلبا ، يقينا منه أنه من غير طراز الحواشي التي تلوث الحكام فتوصد باب العدل في وجوه الشكاة فما يفتحه الا البرطيل . ولما نقل القنصل من منصبه اعطاه وثيقة خطية تشهد له بمناقبه . وكان العكاوي مسلما يقيم الصلاة لاوقاتها ، ويؤدي الزكاة ، ويصوم شهر رمضان ، وقد حج البيت العتيق مرتين ، مما زاده حظوة في عين القنصل النبيل العفيف اليد والقلب واللسان .

ولقد خلفه في منصبه قنصل جلف دنيء زنديق لا يعف عن النساء والرشوة ، فلم يطق العكاوي صبرا على فساد المعلم فاستقال فأقيل . وخرج نظيف الكف والجيب يعيش من غلة عقار ورثه عن امه . وكانت المصادفة قد جمعتني به لاربعين سنة خلت ، فأكبرت فيه جم تهذيبه ، وذكاءه وخصاله الكثر . فساءني هوانه علىخادم الفندق، فنهضت معتمدا عصاي ، فقال أسعد ومسعود الى اين ؟ فقلت الى العكاوي .

وانفرج لي الحشد قليلا ريثما تجاوزت حلقات الراقصين ، فاذا بي ارى العكاوي واقفا وشارباه يرتقصان غضبا . ولم يزده الشيب الا بهاء وهيبة . ورأيت في عينيه مثل البريق ، فلما أثبتني تعلقت بين جفنيه عبرة ، فأخذته بيده ودخلنا بهو الفندق ، وما فيه الا نفر من رجال ونساء يتحدثون ، فانتحينا زاوية وجلسنا ، فطيبت خاطره ، وسكنت من جاشه فاستطلعته الخبر فقال : يا استاذ لم يبق لامثالي من مقام ولا قيمة في هذه الدنيا، فقلت لماذا ؟ فقال : انما جئت الفندق هذا المساء ، وانا على موعد مع المحامي فلان ، فطال انتظاري فسئمت فطلبت نرجيلة أتسلى بها . فحفل بي صاحب الفندق ولكن الخادم اغفلني . وكنت كلما طلبت جمرة ينظر الي نظرة استخفاف فعز علي بعد الشيخوخة ان احتقر ، وذكرت شبابي وكهولتي وماضي فضاقت بي الدنيا فغضبت . ولكن صاحب الفندق عزاني فطرد الخادم للحال . فقلت خفض عنك يا عماه فمنزلتك في صدور عارفيك ما برحت رفيعة . وما زلت أطيب خاطره حتى سكن ، وجاء المحامي واصطحبه الى بيته .

ودخل البهو في تلك الهنيهة كهل أتعبه الرقص فسلم على مسعود وجلس في زاويتنا . وكنت قد رأيت رسومه منشورة في الصحف بعد عودته من أفريقيا ، وقد كتب تحتها المحسن الكبير فلان ، واضيف الى اسمه من الالقاب والصفات ما يذكر بالفرمانات الشاهانية في تقليد المناصب والولايات . وانطلق صاحبنا في الحديث ، فذكر أنه دخل قصر الرئاسة ودون اسمه الكريم في سجل التشريفات . وانه زار المقامات الدينية ، فلقي من الحفاوة ما يلقاه سفراء الدول ، وانه تغدى مع الوزير فلان ،

صديقي

أبد الدهر .. في سعودي، وضيقي — سأناديك .. مخلصا .. يا صديقي
أنا في البردتين .. يسرى ، وعسرى — أهتدي بالوفاء .. عبـــر الطريـــق
عذبتني الدنيــــا .. فالحان بؤسي — رجعتها أغـوار جـــرح .. عميـق
حفرته في مهجتي لعنـــة الدهــر — انتقاما .. مـــن كبريـاء شروقـي
لـم تدع لـي الايـام .. الا ضميرا — أزلي السنــا .. نـــدي البريــق
فنقاء الضمير .. مشعلي الوقـــاد — فـــي زحمـــة الضياع السحيـق

يا صديقي .. وكـــم أقدس أطياب — حروف .. تضم معنى ((الصديق))
لك في خاطري .. أضاميم عهـــد — مورق الفرع .. سرمدي، وثيق ..
يزهر الصمت .. في رؤاه.. كروما — حاليات .. مكوثرات الرحيـــق ..
وحكايا .. كأنهـــا .. أغنيـــات — سكبتها اوتـار قلب .. مشوق ..
حسب حظي مـن الحياة .. ولمـــا — ينقض العمر .. ان أنادي : صديقي

اللاذقية — فيصل خليل

وسيتعشى مع وزير آخر ، وانه سيبدل سيارته فيترك (البونتياك) لاخيه المقيم ويقتني (الكاديلاك) . وكنت ادخن سيجارتي غير آبه لثرثرة تتوالى كراغوفة (حنفية) الماء . فأبرمه صمتي فقال : يا أستاذ أنا قرأت في المهجر كل مؤلفاتك فهنيئا للبنان بأمثالك . فقلت أيها نبه خاطرك . فحك جبينه غير قليل ثم قال : (ملوك العرب) فقلت : هذا كتاب جليل ، ولكنه ليس لي فمؤلفه صديقي المغفور له امين الريحاني . فكف عن الكلام وانسحب .

فقال أسعد عجبت لشأنك في هذه السهرة ، فلقد توددت اليك السيدة فصرفتها غاضبة لما ذكرتها بصاحبة المندولين ، ولم تلق نظرة الى ابن صديقك الشاعر ، وازدريت هذا الوجيه المحسن ، ولم تأبه لسوى العكاوي.

قلت : أما المرأة المصابية فدمها أثقل من دم البق ، وقد ارادت مجالستنا لعل مصور الحفلة يصورها في حلقتنا ، فتشتري عددا من الجرائد تباهي بها زاعمة ان بيننا من الصداقة الحميمة أواصر قديمة . وأما الشاب الفنج الذي كان ضربة على أبيه فالطرد أقل ما يستحق لانه مجرم ، وان لم يعاقبه القانون . أما هذا المهذار المعقد فيصح فيه قول الامام علي : احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع . وأما احسانه الكبير فضرب من ضروب الابتهار والدعاوات وفي نظر علماء النفس لون من الوان العدوان والاستكبار ، فلو كان محسنا كبيرا لما درت يده اليسرى بما فعلت اليمنى ، ولا خير ان يدرج في صفه المتبرعون الذين تنشر أسماؤهم في الصحف والتلفزيون وسواها من الاساليب الامريكية . واقترح ابدال المتطوع ، او المتبرع ، او الكريم بالمحسن حينئذ توائم الصفة الموصوف .

أما العكاوي فيصح فيه الحديث الشريف : أكرموا عزيز قوم ذل . فلقد شق على الرجل الذي شارف الثمانين الا يلتفت اليه احد ، وتصرف العناية الى هذه الزمر من السكارى والراقصين والشباب الماجنين ، وربما كان أحد آبائهم أو أجدادهم يفاخر بمعرفته للعكاوي فضلا عن مصادقته .

وانا انما أكرمته لاسباب منها الاحترام لسنه العالية، وما كل الشيوخ بالاجلال خلقاء ، فمنهم المتصابون والسفهاء ، والعكاوي نبيل الخلق أبي النفس . ومنها ان ماضيه النقي كان قدوة خيرة لمعاصريه . ثم ان الرجل يحمل بين جوانحه جبلا كاملا من لبنان الاصيل ، وانا كلما شاخ واحد من أبناء ذلك الجبل أو هلك احس ان ارزة توارت ويندر أن يقوم مقامها مثلها .

وانصرفنا الى غرفتنا في الساعة الواحدة بعد ما انتصف الليل .

بولس سلامة

الفريـد ابـو شـديد

بقلم شكر الله الجر

***

اديب صبيح الوجه مشرق الطلعة، وماجن خفيف الظل، لطيف النكتة، في عينه اليمنى حول مستحب . اضف الى هذا عفة في النفس وسرعة في الخاطر، على زهو الصبا ومرح المزاج، الى شاعرية تغيب عن جوه زمنا ثم تعود لتدغدغ اوتاره فيسمعنا من انغامها ما يروق سمعه ويطيب وقعه .

يمم البرازيل قبل الحرب الكونية الكبرى تاركا وراءه قريته « راشيا الوادي » وذكريات التلمذة في مدرسة الشويفات ؟ يجيد من اللغات العربية والانكليزية، وخلال وجوده في البرازيل اتقن اللغة البرتوغالية كتابة وخطابة وله فيها مقاطع من الشعر والنثر شفافة رقيقة .

وعندما اعتزم المرحوم فوزي معلوف ان ينقل قصيدته « على بساط الريح » من العربية الى البرتوغالية عهد الى الفريد ابو شديد بترجمتها نثرا فسهل على احد شعراء البرازيل ان يصوغها شعرا وهذا بدوره مكن الشاعر الاندلسي « فيلا سبازا » من نظمها في لغته الاسبانية الجميلة .

كان لالفريد شقيق لأمه في شمالي البرازيل شجعه على السفر اليه من لبنان فسافر ولما نزل في داره وتعرف الى نوع تجارته في الزراعة وتربية المواشي في مجهل من مجاهل الداخلية المتخلفة المقفرة ودع خاله ومضى على وجهه حتى انتهى الى عاصمة الاتحاد « ريـو جنيرو » فاستقر في ضاحية من ضواحيها يعلم اللغة الانكليزية في بعض المدارس الريفية الخاصة ولحظ الفريد اثناء ممارسته التعليم ان كلمة دكتور تطلق على من هم دونه علما وثقافة فقرر ان يضيف على بطاقته الخاصة لقب دكتور واذا به بين ليلة وضحاها يدعى « الدكتور ابـو شديد » .

وما لبث ان ترك التعليم في الارياف ونزل العاصمة بعد ان تعرف الى احدى السيدات فتزوجها لمالها وليس لجمالها .. فذاق من مرارة غيرتها ما نغص عليه العيش معهـا .

عرفت ابو شديد بعد ان جعل من زاوية شارع اوفيدور محطة دائمة له يقف عليها منذ الساعة التاسعة صباحا حتى الرابعة مساء فلا يتزحزح عنهـا الا قليلا .

وشارع اوفيدور هذا من اجمل شوارع العاصمة موقعه في قلب المدينة يمر به مـا يقارب المليون نسمة خلال النهار تزينه المحال التجارية الفخمة عن الجانبين بما تشتمل عليه من اقمشة ثمينة ومجوهرات غالية تتهادى طواويس الجمال ذهابا وايابا فيه .

وكم وقفة كانت لنا طويلة الى جانب ابـو شديد نتبادل فيها النكات الظريفة اللطيفة ونمتع العيون بالجمال العامر امامنا وسيان لدينا اشكاله والوانه على حد قول الشاعر الخالد صلاح لبكي :

من انت لا أدري ؟ ومـا ضرنـي جهلي – وجهلي اللـذة الباقية
اطيب مـا في العمر اغنيـة تبقى بـلا وزن ولا قـافيـة ؟

ومن لطائف ما اتفقنا عليه نحن اصدقاء ابو شديد ان نسميه (صندوقة البريد) فقد كان احدنا اذا شاء ان يترك خبرا شفاهيا او خطيا الى أحد رفاقه الذين تعودوا المرور من هناك عهد به الى الفريد فيوصله بكل امانة .

وفي يوم من الايام توارى صديقنا الشاعر فجـأة فاحسسنا فراغا كبيرا لتخليه عن موقفه المعهود وبعد التقصي والاستخبار بلغنا انـه ذهب بصحبة احـدى السائحات الاميركيات في نزهة الـى « بونس ايرس » عاصمة الارجنتين وهي من العواصم المشهورة في اميركا الجنوبية غنية بعمل الانسان عن عمل الطبيعة. فشوارعها الفسيحة وبناياتها العصرية الانيقة وهندستها الفنيـة جعلتها بين عواصم العالم من الطراز الاول .

وبعد عودته اقمنا لـه مأدبة تكريمية شائقة علـى اعتبار انه قادم من شهر العسل حضرها عدد من اصدقائه الادباء والاديبات . كل ذلـك وزوجه المسكينة لا تعرف من امره سوى انه ذهب الى الارجنتين باشغال خاصة .

افتتح الكلام في المأدبة الكولونيل « فنتورللي سوبرينيو » احد ضباط الجيش البرازيلي ومن كبار الشعراء وكـان صديقا حميما لنا ولالفريد فجاءت كلمتـه شيقة جذابة اغرقتنا في بحر من الضحك . ثم جاء دوري فوقفت القي كلمة عليها طابع الجد ولم يكن أحد يتوقع ان يأتي مـن بعدها ابيات من الشعر تحمل طابع الهزل والدعاب فكانت مفاجئة لذيذة :

اهلا بصب طيـب النغمـات وشبيه (دون جوان) في الغزوات
يا مـن تركت لنـا فراغـا عندمـا فارقتنا في انحس الاوقـات
لم يبق بعدك من رسـول بيننـا او نـاقـل عنـا حديـث رواة
خطفتك مـن اكبادنـا وعيوننـا حسنـاء بيـن الغنـج والبسمات
ولحسن حظك ان زوجك لـم تكن تـدري بمـا تأتيـه مـن حركات
ولو انهـا عرفت بانـك مغـرم لا شك كنت باسـواء الحالات ؟

الى آخر ما في الابيات من مجون فكانت لنا ساعات من المرح ضج لها المكان من جنباته الاربعة .

وفي يوم من الايام أطل علي الفريد وفي يده قصيدة لانشرها في مجلتي « الاندلس الجديدة » يصور فيهـا المرأة المفتونة بجمالها الممعنة بالاعراض عن عشاقها حتـى

الخيط الساحر

وسألتها ــ والخيط حول الاصبع المشغول ــ ماذا تصنعين ؟
فتضاحكت مني وقالت ، والسنا يعلو الجبين
والومض في لمحاتها ــ ينبي عن الشوق الدفين
« جرسا » لأجلك يا حبيبي ، يا أمير العاشقين

وتمر أيام اللقاء ، ويختفي عني سناها
وتروح ، لم تترك هنا ــ الا بصيصا من ضياها
غابت كما يمضي الشعاع ، ولم يعد الا صداها
وبقية من خيطها ــ كان النسيم هنا رماها

ووجدتها يوما ، وكان فتى هناك ، على اليمين !
وسمعته ، نفس السؤال يقول ــ ماذا تصنعين
« جرسا » لأجلك يا حبيبي ــ يا أمير العاشقين
فضحكت من نفسي ، ومنه ، ويسخر الخيط اللعين

امارة الفجيرة — عبد المنعم عواد يوسف

اذا ذوت نضارتها وتناثرت اوراق وردتها وتفرق عنها عشاقها راحت تندب حظها وتراجع ذكريات أمسها ولعل صاحبنا لا يعني بذلك المراة فحسب بل يعني من خلالها نفسه وقد ابيض شعره ونحل جسمه وانكمشت ملامحه بعد شباب ريق نضير . وهاك بعض من قصيدته :

يفتر عن زهو الصبا ثغرها — وترقص الامال في صدرها
تستوقف الانفاس اما بدت — وتنهب الانفس في أثرها
تلقي على عشاقها نظرة — غضبي ويطفو البشر في سرها

تاخذها من حسنها هزة — فتحسب الدنيا بها زاهية
في نفسها تطفو انانية — تمشي بها نحو الردى قاسية
لكنها لما صحت ابصرت — ان الصبا اوراقه ذاوية

هيهات ان ترجع ايامها — او يرجع الزهو الى نفسها
تفرق العشاق من حولها — وغارت الاحلام في رمسها
صارت اذا تسام من يومها — تعود بالذكرى الى أمسها

كان صديقنا الفريد من المعجبين المغرمين بالممثلة « جان ارلو » المتهمة بقتل زوجها .. ومن رأيه فيها انها اعظم من مثل دور المراة الطائشة . ويوم محاكمتها راح يصغي الى الاذاعة الاميركية مدة اربع وعشرين ساعة لم يذق خلالها طعاما منتظرا كلمة القضاء فيها . ومما قالته لي زوجته في حينه وهي تلتهب غيظا وغيرة وتشير بطرف عينها الى رسم « ارلو » المعلق في حجرته :

« الحمد لله على براءة « ارلو » والا لخسرنا يا استاذ صديقك ابو شديد » .

ولما صدر ديواني « زنابق الفجر » وهو نوع من شعر التأملات والغزل ، اهديت اليه نسخة منه . وبعد ايام طلع علي بهذه الابيات الطريفة التالية :

صناجة الشعر الرقيق الحالم — كم في بيانك من نسيج ناعم
لك في الزنابق لو علمت عرائس — تختال بين كواكب وغمائم
ستظل ما بقي الزمان واهله — زهرا يموج على ربيع دائم
غرر بجيد الشعر هن عقوده — وعلى فم الايام شدو حمائم

والى آخر ما في هذه السبيكة الشعرية من عواطف الاخوة التي شدتني اليه وعمت جذورها في تربة مودتنا مرور الايام عليها . وللفريد ديوان شعر في اللغة البرازيلية لم يطبع كان يسمعنا بعض مقاطعه فنطرب لها.

واني لاذكر من شعره رثاء الشاعر الكبير المرحوم وديع عقل صاحب جريدة « الراصد » البيروتية يوم اقامت له الجالية اللبنانية حفلة تأبينية في العاصمة تحت رعاية مجلة « الاندلس الجديدة » ما يلي :

حسن الصياغة من رقيق شعوره — ونزاهة الوجدان من حسناته
وعرائس الالهام من جناته — ونفائس الافكار من نفثاته
درر المعاني في القصائد ملكه — وبلاغة الانشاء في ملكاته

يا لها من نوافذ للذكريات ما انفتحت مرة على حدائق الماضي وعلى تلك الحلقة المختارة من رفاق الادب والغربة وقد بعثرها الزمان بين الضباب والتراب الا وانهارت اعصابي وغمرت الدموع اهدابي .

جبيل ــ لبنان — **شكر الله الجر**

خرجت من الشركة متعبة .. يتعقبها دوار يكاد يطوح بهــا .. المرئيات من حولها تغرق في الاضواء الباهرة ، لكنها تبدو امام عينيها كما كانت ملفوفة بضباب .. والشارع يصخب بالاصوات .. اصوات متمايزة ، لكنها تتحول في اذنيها الى طنين متصل .

بلغت محطة الترام .. اتجهت الى العمود الذي يحمل شارة المحطة ، و استندت اليه بظهرها ..

فتحت حقيبة يدها بعناء ملحوظ .. اطلت الى مرآة صغيرة تستقر في داخلها ... طالعت وجهها ... شحوب خفيف يشوب قسماته .. وخصلات الشعر الكستنائي ... تتبعثر فوق الجبين وعلى جانبي الوجه المستدير بغير انتظام .. لم تعتد الاهمال في زينتها حتى في اقسى الظروف .. فزينتها شيء وكل ما عداها شيء اخر .. اليوم شغلها مشوارها فلم تنظر الى مرآتها ..

رفعت يدها وساوت خصلات شعرها ، ثم اغلقت الحقيبة ....

واعتدلت بقامتها تختبر الدوار الذي كان يتعقبها .. دارت راسها .. وارتعشت اهدابها .. ادركت ان الدوار ما برح يلازمها .. تنهدت في صمت وهي تعاود استنادها الى العمود ، وما لبثت ان استغرقها الشرود .. لم يدهمها من قبل مثل هذا الدوار فما سببه يا ترى ؟..

آه .. لم تغف ساعة الظهيرة كعادتها .. والمشوار ايضا .. منذ خرجت من الشركة في الساعة الواحدة الى ان رجعت اليها في فترة المساء وهي تلف وتدور .. دون نوم .. وبغير غذاء .. لو كانت ظفرت بشيء يريحها لهان كل ما لقيت ..

وجاء ترام مترع بالزحام ....

فانصرفت عنه .. ونادت تاكسي ليحملها الى البيت ..

فتحت باب الشقة في هدوء .. الفت غرفة حماتها مضاءة ، وكذا المطبخ .. لا تريد ان تلقى احدا حتى لا يحاصرها باسئلة تزيدها دوارا .

تسللت في حذر الى غرفتها .. لم تضيء نورها .. اكتفت بخيوط الضوء التي تنساب اليها من المطبخ .. توجهت الى السرير الصغير القائم في ركن منها .. وجدته خاليا .. صحا اسامه اذن من نومه وذهب الى جدته في غرفتها .. وربما يكون نام اليوم معها ...

هل تراه تغدى ؟.. ام اصر على انتظارها ؟..

انحنت فوق السرير تقبل الوسادة الصغيرة .. وترامى اليها من غرفة حماتها المجاورة لغرفتها صوت صغيرها وهو يسب الخادم ويلعنها



بقلم اسماعيل علي اسماعيل

.. رغم اعيائها ، سمحت لابتسامة واهنة ان تمسك لثوان بشفتيها .

ترنحت في وقفتها .. فتحولت الى سريرها وانحطت فوقه .. عاد صوت الصغير معاودا سب الخادم وشتمها .. ومهددا بشكايتها الى ابيه حين يعود ..

وخزتها كلمات الصغير ... طفحت عيناها بالدموع .. شعرت برغبة في الاستلقاء فوق الفراش والاستسلام للبكاء .. عسى البكاء يخفف من الدوار ، او حتى يضاعفه، فتنشغل به عما يستعر في صدرها ..



لم تتوان .. بعد فترة قصيرة أمضتها في نحيب صامت تولتها راحة .. وعاد صوت الصغير يتهادى الى اذنيها .. صافيا رائقا .. مثيرا لجلبة وضوضاء كما لو كان عشرة صغار .. عرفت انه بدأ لعبه ومشاكسته لجدته .. اشفقت على العجوز .. فكفاها ما تعاني من مرض وحزن ..

وقامت الى غرفة حماتها .. وقبل ان تدخلها .. وقفت ببابها تحتويها بناظريها .. وبسمتها تزيح الشحوب البادي على وجهها .

استدار الصغير اليها ، وكان يحمل مدفعه الصغير بين يديه .. علت شفتيه الرقيقتين بسمة حلوة، لكنه ما لبث ان نحاها ، ليرسم على وجهه الدقيق القسمات امارات جد وغضب وهو يتمتم :

ـ ماما .. لماذا تأخرت ؟ سوف اشكيك لبابا ..

وخزتها كلماته .. تقدمت منه شبه ذاهلة تريد احتضانه .. ابتعد عنها وهو يسدد نحوها مدفعه .. ويضغط على زناده فتنبعث من فوهته اضواء متعاقبة كما لو كانت طلقات تندفع منه .. ضحكت في صفاء .. وتذكرت حماتها .. فالتفتت اليها قائلة :

ـ مساء الخير يا نينة ..

ردت العجوز تحيتها بصوت واهن .. ثم سألتها وهي تتملاها بعينين فاحصتين :

لماذا لم تات الظهر ؟

اختطفت الصغير واحتوته بين ذراعيها .. ثم اقتعدت حافة الفراش الذي تتمدد فوقه العجوز .. ومضت تقول واصابعها تداعب خصلات شعر صغيرها :

ـ استأذنت من المدير .. وذهبت الى السجلات ثم الوحدة .. وبعدهما مررت بالهلال الاحمر

لاسئل عن نتيجة استفساري .

ولاذت بالسكوت .. ولمحت العجوز غمامة يأس تظلل وجهها ، فوادت رغبتها في مزيد من الكلام معها ..

اطبق الصمت على الغرفة .... وبعد لحظات انبرى الصغير يصوب مدفعه تجاه وجه امه ، ويضغط على زناده ..

سألت العجوز زوجة ابنها بحنان:

اجابت الزوجة الشابة فيشرود :

ـ هل تغديت ؟..

ـ لا ..

ثم استطردت :

ـ لا اشعر بجوع ..

عقبت العجوز بحنان اكثر :

ـ لا يا بنتي .. قومي لتتغدي .. اسامة تغدى ..

وجاءها الطعام فوق منضدة صغيرة .. وضعتها الخادم امامها قرب فراش العجوز .. وطفقت تأكل بغير شهية .. وتطعم الصغير .. وطال صمتها .. فهمهمت العجوز :

ـ بصراحة .. انا لست مستريحة لعودتك الى العمل ..

انحشرت اللقمة التي كانت لاكتها في حلقها .. بذلت جهدا في ابتلاعها .. تحولت الى رغيف امامها لم يزل بتمامه .. تركت اصابعها تعبث به دون ان تصيبه بمزق .. لحظ الصغير سكوتها .. رفع يده البضة وجذب خصلة من شعرها .. وتركها تنساب فوق جبينها .. ثم ارجع رأسه الى الوراء وراح يتأملها ..

انثالت الذكريات على رأسها ، فعافت نفسها الطعام .. وانشغلت بذكرياتها عمن حولها .. كان يحلو له قبل كل سفرة ، ان يجذب هذه الخصلة ويدع اطرافها تلامس اهدابها .. ويستمر يرنو اليها في وله وشغف .. ثم يطلب اليها ان تغمض عينيها .. ويعود بعد قليل فيدعوها أن تفتحهما .. وكانت تستجيب له في نشوة وتلذذ ... فاذا اشرق وجهها بابتسامتها الاخاذة اختطفها بين احضانه واغرق وجهها وجيدها بقبلاته ..

وطفت على السطح أحزانها ، فضاعت الذكرى ، وتلاشت نشوتها .. وانتبهت ، فاذا الطفل قد نزل من فوق ركبتيها .. وعمد الى دبابته الصغيرة ، يملؤها بالزمبرك ، فتتحرك فوق السجادة .. ويبقى برهة محدقا فيها ، والتحفز يلوح على محياه ، ثم يباغتها بمدفعه و هو ضاغط على الزناد فيقلبها على جنبها ..

وانجذبت الى الطفل .. ترقبه بسعادة .. وارتفع صوت العجوز :

ـ طوال النهار هكذا .. وليته يشغل بلعبه ويرحمني من مشاكسته .

لم تعلق بشيء ، فاردفت العجوز قائلة :

ـ لست ادري ما الذي يجعلك تتقبلين تعب العمل وقرفه .. هل رأيت وجهك في المرآة ؟..

اجابت الزوجة الشابة وهي تلتفت الى حماتها نصف التفاتة :

ـ يا نينة العمل لا دخل له ... السبب اني مشيت كثيرا والحر كان شديدا ..

ودمدمت العجوز شبه حانقة :

ـ لو كنا بحاجة الى مال لكان الامر مقبولا .. لكن مرتبه ما زال يصرف لنا بكامله .. اليس الافضل أن تستريحي في البيت وترعي الولد ؟..

وقالت بنبرة حزينة :

ـ كان انتظاره كل يوم يملأ علي فراغي .. وبعد غيابه اصبح الفراغ يخنقني .. صدقيني يا نينة ان العمل لا يتعب .. وحتى لو كان متعبا فهو يشغلني عما انا فيه .

وسقطت دموعها .. فربتت العجوز على ظهرها وهي تهمس :

ـ قومي يا بنتي لتبدلي ملابسك .

نهضت واقفة في تثاقل ... وهمت بالخروج ، واذا الطفل يقفز معترضا طريقها . رافعا بذراعيه الصغيرتين مدفعه الى صدرها .. وتلاشت على الفور احزانها .... وعادت البسمة تضيء وجهها ... ومالت عليه .. ترفعه بين ذراعيها .. وتأكل وجنتيه بشفتيها .

★

الايام تمر .. ويوما بعد يوم .. يرتفع منسوب عذابها .. فحماتها العجوز يتضاعف مرضها وهزالها .. ودائما تغط في الصمت والشرود .. وطفلها الصغير كان دائما حلو المشاكسة .. انقلب يحطم لعبه .. ولا تمر لحظة من نهاره أو ليله دونما يهدد ويتوعد .. ويبكي ويصرخ بغير سبب ، حتى الخادم ، امتدت اليها سحابة الهم التي تظلل البيت .. فتحولت هي الاخرى الى سهوم واكتئاب .. تنصرف اليهما أكثر مما تنصرف الى شغل الدار .. ولو كان بيدها خلاص اي منهم لتحملت عنه ما يعاني .. لكنها لا تملك لما اصابهم دفعا .. هو وحده الذي بيده خلاصها وخلاصهم .. لكن اين هو ؟.. الاسرى جميعهم عادوا .. وهو لم يعد .. ويقولون موجود .. وان سألت اين ؟.. مطوا الشفاه .. وهزوا الرؤوس .. ولاذوا بالسكوت .. عذاب فوق عذاب .. لو يقولون مات ..

وانقبض صدرها .. واسرعت تستعيذ بالله في سرها .. وتولاها حزن وذهول .. فهذه الكلمة لم تقفز الى ذهنها من قبل .. رغم تفكيرها الدائب في مصيره بعد ان طالت غيبته .. وبحرقة همهمت :

ـ يا رب ..

وتقلب صغيرها الذي يشاركها فراشها ، فشد بصرها اليه ... وجعلت تتأمله .. جفناه مسبلان

.. وشفتاه الرقيقتان مزمومتان بعناد .. وخصلات شعره تستلقي فوق جبينه .. وصدره يعلو ويهبط في عنف كأنما يبذل جهدا في تنفسه .. ووجدت نفسها تطوق الصغير بذراعيها .. وتضمه الى صدرها بقوة ..

ويجرفها نشيج محموم .... فيصحو الصغير منزعجا .. ويسألها بصوت يختلط فيه النعاس بالفزع:

ــ ماما .. لماذا تبكين ؟

ويبقى صدرها ملتصقا بصدره حتى يهدأ بكاؤها .. ثم تمسح دموعها في شعره الناعم ، وتغمغم وهي تحاول الابتسام :

ــ لا شيء يا حبيبي .. نم انت.

رمقها الصغير بنظراته الناعسة ، ثم وثب الى الارض ، واتجه الى دولاب الملابس ففتحه ، واخرج مدفعه ودبابته ، ثم التفت اليها يسألها :

ــ ماما ... هل بابا له دبابة مثل هذه ؟..

وردت بخفوت :

ــ نعم ..

ــ ويركبها ..

ــ **نعم ..**

ــ انا لا استطيع ركوب هذه الدبابة ..

ــ **لانها صغيرة ..**

زعق غاضبا :

ــ ولماذا اشتريتها صغيرة ؟..

اريد واحدة كبيرة مثل دبابة بابا .

وقالت ملاطفة :

ــ عندما تكبر يا حبيبي ..

ركل الصغير الارض بقدميه وهو يصرخ :

ــ انا كبير .. انظري ..

واخذ يدور حول نفسه .. وهو يشد قامته التي تتعدى نصف المتر بقليل .. وكان الدولاب لا يزال مفتوحا ، فوقع بصره على ملابس ابيه العسكرية .. ولحظتها ، توقف عن الدوران وبادر امه :

ــ ماما .. اريد ان البس هذه البدلة لاكون مثل بابا واركب دبابة كبيرة مثله ..

وبحدة صرخت :

ــ اقفل الدولاب ..

اسرع الصغير فاغلق الدولاب ، وبقي مستندا اليه وهو يحملق فيها باستغراب ودهشة .

ودق جرس باب الشقة ، فاندفع الصغير خارجا من الغرفة ، في حين بقيت هي مسترخية فوق الفراش .. وجاءها صوت الصغير من الخارج مرددا :

ــ بابا .. بابا ..

انتفضت واقفة .. وبارحت الغرفة بخطى مسرعة ، وهي ما انفكت بملابس نومها .. وما كادت تخرج الى الصالة حين تسمرت قدماها .. كان ثمة ضابط يقف بباب الشقة .. و ارتد الضابط عن الباب لحظة رآها ليتوارى عنها ..

انتبهت الى انها تلبس قميص نومها، فتقهقرت راجعة الى غرفتها، ولبست روبها على عجل ، ثم خرجت ثانية ، وقلبها يدق بعنف ، وقدماها ترتطمان ببعضهما من اضطراب شملها .. لم يكن الضابط وحده .. كان بصحبته جنديان اخران .. ولم تدر بماذا تفاتحهم .. ولم يتكلم الضابط ولا من معه .. وساد صمت خانق ..

بعد فترة باغت الطفل الضابط سائلا :

ــ اين بابا ؟..

اخذ الضابط .. وبدا الارتباك واضحا على محياه .. بعد ثوان ، مد الضابط يده ليمسح بها على شعر الصغير .. تجنب الصغير يده .. وعاد يسأله :

ــ هل تركب دبابة مثل بابا ؟..

انا لي دبابة .. وهذا المدفع ..

والتفت الطفل ناحية امه واستمر يقول وهو يشير الى بيريه الضابط :

ــ اريد واحدا مثل هذا .. بابا له واحد في الدولاب .. هل البسه؟

ولم ينتظر الصغير من امه ردا على تساؤله .. جرى الى الغرفة ، وراح يعبث بمحتويات الدولاب ، حتى عثر على حذاء لابيه وبيريه ، كان الحذاء ضخما ، ومثله البيريه، لكن الطفل لم يهتم .. ادخل قدميه الصغيرتين داخل الحذاء ، ووضع البيريه فوق رأسه .. ومثلما غاصت قدماه داخل الحذاء ، تاهت راسه تحت البيريه .

وسمع الصغير صرخة ندت عن امه ، فمشى الى الصالة ، وهو يجرجر الحذاء الضخم بقدميه الصغيرتين ، و يسند البيريه بيسراه كي لا تنزلق من فوق راسه، بينما تحمل يمناه مدفعه الصغير ،

ووجد الطفل امه تتكوم فوق احد المقاعد ذاهلة ، ومن قبل كانت تقف مثل الضابط الذي لم يزل واقفا ، منكسا رأسه .. والخادم مستندة الى الحائط .. تضرب صدرها براحتها .. ودموعها تسيل في صمت .. وصوت جدته ينطلق من غرفتها مستفسرا عن صرخة سمعتها .. ولا احد يجيبها ، ولبث الصغير في مكانه لا يعي شيئا .. فقط .. يقلب بصره فيمن حوله دونما ينبس .. وضاق الطفل بالوجوم والصمت فثبت بصره على امه وهتف :

ــ ماما .. انا مثل بابا .. انظري

وادارت امه راسها ناحيته .. واحتضنته بعينين لا تطرفان ...

ومد الضابط يده اليها وهو يهمس ببضع كلمات ، فتحولت اليه تصافحه وهي مطرقة .. ولما هم الضابط بامس كتف الصغير تراجع عنه و هو يتمتم :

ــ اعمل هكذا .. مثل بابا ..

ورفع يده الصغيرة يحيي الضابط شبه تحية عسكرية ..

واغرورقت عينا الضابط وهو يرفع يده ليحييه بمثل تحيته ..

واذا الجنديان هما الاخران يرفعان يديهما بتحية عسكرية مماثلة ...

ومكث الطفل رافعا يمناه قرب راسه .. ويسراه تقبض على مدفعه الصغير ، حتى خرج الضابط والجنديان ..

القاهرة اسماعيل علي اسماعيل

الادب والحضارة وتتبع الكشوف

بقلم الدكتور محمد يحيى الهاشمي
رئيس جمعية الابحاث العلمية

* * *

اعتاد نفر من ابناء امتنا تثبيط الهمم لا بنقد خلاق مبدع ، بل بتصريحات هدامة من شأنها خنق القابلية ووضع سدود حائلة امام تقدم الفكر البشري ، فيلومون الاديب عندما يرمي نظرة في العلـوم الحديثة ليستمد من تلك العلوم اساسا متينا لمادته الادبية محاولا ايجاد منهج علمي لنزعاته او محركا جديدا لعاطفته الفنيةعلى مبدأ الكشوف الحديثة في المعارف .

ويهاجمون كذلك العالم عندما يريد الاستراحة من اتعابه في قطعة ادبية او لوحة فنية يجد فيها متعة ولـذة ونشاطا جديدا للعمل ودافعا حديثا في البحث والاستقصاء

نعم ان الاختصاص هو من ضرورات التقـدم ، لان التوسع في العلوم في الوقت الحاضر لا يسمح بالتشتت واضاعة الوقت الثمين في مختلف ميادين العلم والادب ، ولكن مهما حاول المرء ان يكون متخصصا فلا بد له من القاء نظرة عجلى على ما جاوره من مشاكل مختلفة ، فحب معرفة مدى تقدم الثقافة في شتى الميادين هو غريزةفطرية لا يمكن ابادتها في انسان واسع الافق بعيد غور النفس ، محب للاطلاع الى اقصى درجة المحبة .

فبجانب الاختصاص المحدود يحتاج الانسان الى ثقافة عامة مبنية على مختلف الفروع ، اضف الى ذلك ان الانسان اجتماعي بطبعه . والحياة تتطلب منه ان يطلع على ما يحيط به ، سيما اذا كانت الامور غير سائرة على الوجه الذي يتطلبه الضمير الحر . عند ذلـك يـزداد اهتمامه بالمشاكل الاجتماعية الحاضرة . وبزيادة الاهتمام تزداد معها ثقافته ويتسع افقه .

ويذكر علماء النفس العصريون بأنـه من اصعب الاشياء ان يخضع ميل النفوس في هذه الايام الى تضييق دائرة اهتمامها من الوجهتين العلمية والفكرية ، ذلك لان طريقة ادراكنا العقلي للاشياء تقوي هذا الميل بدلا من ان تنقصه . ومن اجل ذلك لا يستطيع الفرد وحده ان يتغلب عليه الا في احوال نادرة جدا . فهو اذن في حاجة الى الاتصال بعقول غير عقله .

نحن نريد التمتع بالثمرة ، ولكننا لا نعرف وضع البذرة الطيبة في البيئة المناسبة واعطاءها المجال والغذاء الكافي لنموها . حتى اننا لم نجد حتى الان الحاجة الملحة في اقتناء امهات الكتب العلمية الحديثة بله ترجمتها الى لغتنا العربية ترجمة علميـة صحيحة . واذ الف احد الاخصائيين كتابا علميا بحتا صرف عليه مـا صرف من الوقت والجهد ، فماذا يكون نصيبه يا ترى ؟ الجـواب يعرفه كل من عانى التأليف والنشر .

اني لاعجب جد العجب ان يجد ذلك العربي القديم جدية يبذل من اجلها كل غال ونفيس ، ونحن لا نجد مثل هذه الحاجة في ترجمة منتجات العلوم العصرية ترجمة حاجة ماسة لترجمة آثار الاغريق الى لغته ترجمة متقنة شاملة تكون السبب بظهور نهضة اسوة بتلك النهضـة القديمة ، مع اننا نعيش في عهدها ونشعر بالدور نفسـه الذي تلعبه في تسهيل مرافق الحياة وتثبيت العـزة القوميـة .

كل هذه الاوضاع غير جديرة في تكويـن رجـال الاختصاص ، فنحن الذين نضع العراقيل في طريـق الاخصائيين ثم نوجه اليهم سهام طعننا وازدرائنا حسدا وبغضا وعرقلة لكل انتاج ، فـاذا ما قاموا في تعويض نقصهم بجهود خارجة عن نطاق اختصاصهم لا نعد ذلك لهم حقا مشروعا ، وارضاء لعقدة النقص المتأصلة جذورها في نفوسنا نشجع الاجنبي ونعطيه اضعاف ما يتقاضاه الوطني ولو كان دونه باشواط . حتى اننا نبرر اعمـال الذين يأتون المنكر ويضيعون الاوقات الثمينة بين قرقعة الطاولة ولعب الورق ، ولا نبرر عمل منتسب الى العلم يقوم ببعض جهود ادبية في نطاق خـارج عن دائـرة اختصاصه ، ولعل كثيرين من الناقدين مـا وجهوا هذا اللوم لغيرهم الا لفقرهم الروحي وعدم قابليتهم لفهم امور عديدة ، فينتقدون ما يتمنون ان يكـون في انفسـهم ، ليفخروا على اترابهم ولينظروا الى المحيط الذين يعيشون فيه نظر المغرور المتكبر لما اوتوا من قوة ادراك اشـياء كثيرة تمهد لهم طريق المعرفة الشاملة . وما عرفوا ان مثل هذه المعرفة تمشي مع التواضع جنبا الـى جنب . تتراءى لنا في النظرة السطحية الحدود ، ولكـن عند امعان النظر والتعمق في الامور نجد اتصالا قويا بـين مختلف العلوم ، بل هناك اتصال ايضا بين العلم والادب .

نعم ترتكز العلوم وخـاصة الطبيعيـة منهـا على المشاهدات الحسية والابتعاد مهما امكن عن زخرف الكلام وطلاء العبارات ، لان الهدف هو ادراك الحقيقة الناصعة عارية سافرة بلا برقع ولا قناع بأقرب الطـرق واقصر الوسائل . وتتطلب منا الطبيعة عينا يقظى وبصيرة حادة وتفهما للواقع على جليته بقانون رياضي مستقيم لا عـوج فيه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا تبطل فرضياته ونظرياته الا بتجارب بينة واستنباطات جديدة ، مع الاستعداد الدائم لتصحيح الافكار المغلوطة والاوهـام الزائفة والخيالات المبتذلة التي ما انزل اللـه بهـا من سـلطـان .

اما الادب فهو في عرفنا بعيد عن ذلـك ، ليس الا

متعة ولذة لا علاقة له بالحقيقة المجردة . وفي الواقع فان الادب الحق يحلق في آفاق واسعة وله قيمة عالمية لا بد من ان يرتكز على اساس علمي متين . ولكن مهما تشعبت الطرقات والتوت المسالك فان النفس الانسانية « كل » لا يتجزأ ولا ينقسم . وما هذه الفواصل التي نضعهـا لتفريق العلم عن الادب ، ما هي الا فواصل وقتية تزول امام النفس الانسانية العميقة .

وكم من الحقائق العلمية باتت مجهولـة الكنه غير معروفة الهوية لانه لم يتح لها بيان واضح وتعبير فصيح، وكم من قابليات ادبية وجهها العلم الصحيح وخلقها خلقا جديدا . وهكذا كلما طالعتنا قصص المخترعين والمكتشفين نجد صلة قوية وتيارا لطيفا يجري من العلم الى الادب ومن الادب الى العلم كالتيار الكهربائي الذي يسري بين قطبين مختلفين ظاهرا ومتعاونين باطنا في احداث الدورة الكهربائية . او كالاملاح الموجودة في الطبيعة والمستحصلة صنيعا على تباين انواعها واختلاف تراكيبها ما هي الا اجسام مكون كل واحد منها من عنصرين مختلفين ظاهرا ومتضامنين حقيقة في احداث جسم مشترك يلعب دوره الهام في تكوين الجامد من الارض والمساهمة في بقاء الحياة عليها . وما الذكورة والانوثة في عالم الحياة الا من الامثلة البارزة على الاختلاف والتكامل في آن واحد .

اننا ندرس في العلوم النتائج العلمية فقط ، ولكننا نغمض اعيننا عن التيارات الادبية العميقة التي بعثت الكشوف العلمية من مرقدها . (١)

اننا نتمتع بالخيرات العميمة التي وهبتها لنا نفس مبتكرة في العلم ، دون ان نلتفت الى العوامل الخفية التي بعثت بهذا الابتكار . انه وايم الحق لجحود للمعروف ونكران للمعرفة الاستفادة من العبقريات العلمية دون الالتفات الى العوامل النفسية التي كونت هذه العبقريات ولعل في دراستنا للشروط النفسية قدرة لنا على ايجاد نفوس مبتكرة خلاقة . وأي شيء يحيط اللثام عن هذه الامور بنواحيها المتعددة متجمعة غير مفككة مثل الادب . ويمكن التصريح والقول انه لا يوجد مكتشف له قيمته في عالم الاكتشاف الا وله ميل خاص لفن او ادب . لان ابداع شيء من لا شيء لا يتاح الا لروح فنية فذة (٢) .

اذن ليس هناك من تضاد ولا يوجد هذا التطاحن النفسي الا في النفوس المنقسمة ، وما هذه التفرقة الا تفرقة شكلية لا جوهرية ذاتية . ان معرفـة البواعث النفسية التي تسكتعنها كتب العلم المجردة ، لا تدلنا على قيمة النتائج العلمية فحسب ، بل تمهد لنا الطريق في تثبيت النتائج وبعث روح نشاط جديدة وتعلمنا ما هو سر انخذالنا المفضوح في الخلق والابداع . فكم جدد الغربي اختراعا ونحن لا نزال واقفين كالوثن .

ان ما نأخذه على ادبنا العربي الحديث ضعفه في روح التنسيق ، تلك النزعة الاصيلة في الغرب والتي نحن بأشد الحاجة اليها ، فما ذلك الا اننا على ما اعتقد في حالة اشبه بثورة بركان يقذف حممه مبعثرة الى كل الجهات مهيئة المواد الخام الضرورية في بناء القشرة الارضية . فاذا لم تطق الارض صبرا على رحابتها وضخامتها وعظم جسمها وسعة باطنها ان تكتم ما في باطنها من لظى مستعر ، فلا تخرجه منظما ، فكيف يطيق بشر فان شاعر بضرورة تبدل الاحوال كبت ما في شعوره من نار متأججة فيخرجه بتؤدة واتزان منسقا ومرتبا . اننا نأمل ان تكون هذه المرحلة من حياتنا الادبية مرحلة مؤقتة لا يطول مكثها فينا . واذا عبرنا عن هذا الدور بدور الغليان والانفجار ، فيلزم ان يعقب ذلك حالا وسريعا دور الهدوء والاستقرار .

ان هذه الخاطرات اوحتها الي مطالعاتي في تاريخ العلوم . وقد ادركت في هذه المطالعات ما كان خفيا علي عند اكتفائي بدراسة الكتب العلمية البحتة ، وقد وجدت ان هذه المطالعات افادتني في اثارة اهتمام الطالب في الموضوع ، وادركت كثيرا من اخلاق العلماء الافذاذ وبيئتهم الاجتماعية ، وكثيرا ما اوحت الي هذه الدراسات بأنه لا يمكن ايجاد عبقرية مبتكرة في محيط لا يساهم بتكوينها . لان النبوغ « كما بينت مرارا وفي فرص متعددة » لا يهبط من السماء بل هو كالبذرة ان لم تجد من يتعهدها والتربة الصالحة لنموها اضمحلت وماتت واصبحت نسيا منسيا . وهذا هو السر في تقدم ابناء وطننا النابهين وهم في ديار الغرب وفي وقوفهم الوقوف المخزي وهم في اوطانهم بين ظهراني اهلهم وذويهم ، وكما انه لا يمكن عيش الاسماء في الهواء ، كذلك لا يمكن نمو القابلية في محيط غير جدير بذلك . ومن هو في الحقيقة اجدر بتبديل الجو المثبط للهمم بجو منشط خلاق غير الاديب والشاعر ؟

اني اقول ذلك واقصد الذي يعبر عن شعور صادق لا يتخذ زخرف الكلام اداة دنيئة للخداع ، حتى اذا صهرنا كلماته في بوتقة الحقيقة العارية تبخرت ولم يبق منها شيء . لهذا السبب عينه ندعو الادباء للسير مع قافلة الحضارة الحديثة ولتتبع الكشوف الجديدة ودراسة علة تأخرنا وطريقة النهضة والخلق والابداع .

حلب — **محمد يحيى الهاشمي**

(١) بصورة مفصلة راجع محاضرتي التي القيتها على مدرج الجامعة اللبنانية في بيروت « تخلف العرب عن الكشوف العلمية » خريف ١٩٥٦ ، والتي نشرت في مجلة اللسان العربي . « العرب والكشوف العلمية » ـ الرباط (المغرب) عدد ٥ عام ١٩٦٧ . (٢) راجع كتابي «ماكس بلانك » ، الفيزيائي والمفكر الكبير ، حلب ١٩٦٦ .



يوسف عبد المسيح ثروة

شخوص من مسرح البير كامو

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

ليس من شك في ان لالبير كامو تأثيرا كبيرا في المسرح الحديث ، فقد تمكن بما وهب من حاسة درامية ان يكون مدرسة خاصة به خالصة من شوائب الكلاسيات وترسباتها ، وان يرفد هذه المدرسة بمعين جديد من الروح العبثية واللامعقولة ، بحيث يصح ان يسمى رائدها ابا المسرح اللامعقول ، على الرغم من انه لم ينو بنفسه ان يكون كذلك . وسبب ذلك ـ على ما ارى ـ يعود الى فكر كامو الفلسفي الذي احتضن فكرة اللامعقول ، سواء في صلات الانسان بالعالم من طريق الوعي المتناقض مع العالم ، ام من طريق تناقض هذا الوعي مع نفسه .

اما فكرة اللامعقول هذه ، فهي تعني ان وجود الانسان في العالم وجود غير ضروري ، لعدم وجود اسباب تدعوه للانتباه الى هذا العالم . فالانسان والعالم نقيضان، ومتى ما تم وجودهما غير الضروري معا حصل افتراق ، انفصال ، تناقض غير قابل للحل بين هذين الوجودين ، ولما كانت كل مفارقة هي انفصام ، فالانفصام هو نتيجة حتمية لتلاق غير متيسر ، او غير قابل الحدوث ، وهذا الانفصام هو اللاجدوي ، وبالتالي فان ظاهرة اللاجدوى هي الظاهرة الوحيدة الجديرة بالتأمل والبحث والتقصي . واللاجدوى ، هي بطبيعة تكوينها ، سمة لفوضى الكون والانسان والعلاقات الانسانية . ولما كانت الفوضى على طرفي نقيض مع الانسجام ، فالفوضى اذن هي الاخت الشقيقة للشقاء . فنحن اذا وجدنا ، في هذا الكون ، لا نوجد من اجل اسباب معقولة ، منسجمة مع طبيعة العالم والكون ، بل يقذف بنا الى هذا الوجود قذفا عشوائيا ، لامنطق فيه ، ولا عقل ، ولا اسباب ومسببات . والحياة التي هي الطابع الحركي لهذا الوجود، ليست الا ساعات ميتة من الزمن ، لان الموت هو الحقيقة الوحيدة ، ولان الشقاء الذي يسبق الموت هو الدلالة الوحيدة ايضا على هذه الحياة التي هي في المدى البعيد انتظار مؤلم لكابوس الموت الذي تنوء به اعصابنا في كل لحظة من لحظات حياتنا الراهنة ، السقيمة، القميئة ، الباهتة ، الزاحفة كالديدان على بطنها المتقيح المتهري ، المليء بالقروح والدمامل والقيح ؟

ومن ثم ـ فنحن لا نحيا في الحياة كما ينبغي ان تكون الحياة ، انما نحن نحمل مشانقنا معنا منذ اليوم الذي نرى فيه النور ، اذا كان ثمة شيء اسمه النور في هذا الوجود المظلم بين هذه الحيطان السميكة المرتفعة ارتفاع ناطحات السحاب . ومن ثم فواقع الحياة ليس هو الواقع الملموس الذي نحياه ، انما هو تأجيل لحكم الاعدام الذي صدق علينا منذ ولادتنا . وهذا التأجيل هو الواقع الحقيقي الذي لا ينبغي ان نهرب منه باللجوء الى الاوهام واضغاث الاحلام . وهكذا يجب ان تكون عيوننا مفتحة لما نحن فيه من شقاء اكيد ، وقلق دائم وصراع اليم في ليل لا اول له ولا اخر .

ومع ذلك كله ، فان بعض الكتاب يحلو له ان يقول ان كامو غير متشائم ، بل هو متفائل لانه يؤمن ببعض القيم الانسانية ، اما كيف يتفق ذلك مع فلسفته كلها فامر غير مفهوم ، ولو تداعى له كل المدافعين عنه وعن فكره الفلسفي . واذا كان الانسان لقيطا في هذا الوجود لانفصامه عن الماضي وعن المستقبل ، لصلته الوحيدة بتوالي الحاضر ، فهو وحيد ، حين يولد وحين يموت ، زنزانته ارضه التي يسكنها قسرا ، وسماؤه سماء سوداء معتمة لا نجم فيها ولا كوكب . وبفقدانه للامل ، ووجوده متعلقا على شفير الهاوية ، وبانعزاله عن العالم الذي يوجب وجوده فيه ان يعيش فيه مجبرا ، كل ذلك يحمله حملا على ان يعيش قلقه منفردا بعيدا عن كل امل وتعزية ورجاء . وبذا تكون العزلة هي الحياة الحقيقية الوحيدة ، في عالم غير حقيقي وغير معقول وهذا النفي للانسان وهذه القبة الزرقاء الصامتة التي لا يرن صداها ، هما خصيصتا وجود الانسان في منفاه الوحيد . ولكن الانسان ـ مع ذلك ـ لا يتقبل منفاه قبولا حسنا ، فهو لهذا السبب يتمرد . والتمرد هذا هو خصيصة ثالثة من خصائص الوجود الانساني . اما كيف يتمرد الانسان على الكون وعلى نفسه ؟ فقضية اخرى لا بد من دراستها واستيعابها وادراكها .

هذه بعض السمات المركزة لفكر كامو من منطلقه اللامجدي بخصوص الواقع الانساني الراهن ، اما سمات مسرحه فيصح ان نقول عنها : يمكن تحديد تطور مسرح كامو بفترتين . الاولى هي فترة اللامعقول التي تتبنى مسرحيته « كاليغولا » و « سوء التفاهم » والثانية هي فترة التمرد وهي تتبنى مسرحيتيه ، « حالة الحصار » و « العادلون » . ولكي يكون تحديدنا دقيقا لهذا المسرح لا مندوحة لنا من ان نستعرض شخوص مسرح كامو استعراضا امينا ، سنحاول فيه ان نتعرف على افكار كامو من شخوصه ، باستخدامنا لغة هذه الشخوص جهد المستطاع لتكون للامانة وزنها ، كاليغولا ، الامبراطور الروماني ، هو بطل مسرحية « كاليغولا » (1) وهو انسان عدمي ، يمتاز بجفاف القلب الى حد النفاد وباللامبالاة وعدم الاكتراث الى حد لا يمكن تصوره او تخيله وهو حد المستحيل الذي يتطلبه كاليغولا بالحاح وعناء وجنون ، انه انسان عاقل رزين ، ذو فكر صافي رائق ، لكنه رغم ذلك كله لا يطلب غير الحصول على القمر ، كاليغولا ليس مجنونا هذا امر اكيد ولكنه يحس بكل بساطة ، وعلى حين غرة ، بحاجته الملحة الى المستحيل ، وذلك بان الاشياء كما هي لا تبدو له مرضية « فهذا العالم السخيف لا يمكن احتماله » ، وتبعا لهذه المقدمة يصح لكاليغولا » ، ان يقول : « هذا العالم كما هو لا يحتمل . انا محتاج اذن الى القمر الى السعادة الى الخلود الى شيء ربما يكون جنونيا ، ولكنه ليس من هذا العالم » . وذلك في معرض حديثه مع مرافقه هليكون .

(1) شواهد مسرحية كاليغولا من ترجمة علي عطية رزق .

صحيح ان خليلته واخته دروزيلا قد ماتت منذ ايام ، مخلفة جرحا غائرا في قلبه ، غير ان هذا لا يهم ، ولهذا السبب فهو يقسم « ان هذا الموت لا شيء وانما هو دلالة لحقيقة تجعل القمر ضروريا (له) وهي حقيقة في غاية البساطة والوضوح » . وعندما يسأله هليكون عن معنى هذه الحقيقة يدير له ظهره ويقول بلهجة خاوية من اية دلالة ، « الناس يموتون سعداء » فالموت والشقاء اذن هما طرفا الحقيقة البسيطة الواضحة التي وجدها الامبراطور بعد طول بحث واستقصاء . ولذلك فلا يصح للامبراطور أن يركن الى النوم ، لانه اذا ما نام فمن يعطيه القمر ؟ وبخاصة وقد وجد صاحب الجلالة كل شيء حوله متمرغا في اوحال الكذب والخداع والغش ووجد الناس يعيشون في جهل مطبق ، بعيدين عن انوار المعرفة والحقيقة ، وهو لا يريد لهم شيئا وقد ملك المعرفة التي تجعلهم يعيشون في الحقيقة « ولا سيما وهو المعلم الذي يعرف ما يقول . المعلم يعرف الحقيقة ، وهو وحده الذي يعرفها » ، وتبعا لمعرفته هذه يرى وجوب ملء الخزانة باسرع وقت ممكن وبطريق مالوفة لدى الاباطرة من المعلمين الا وهي فرض الموت الاجباري على اشراف روما ، فعلى كل الاشراف وكل افراد الامبراطورية ممن يملكون ثروة ، « ان يحرموا اولادهم من الميراث وان يحرزوا على الفور وصية لصالح الدولة » .

الموضوع قتل اجماعي لكل مالكي الثروة ، بغية الاستلاب الاجماعي لكل هذه الثروة والوسيلة هي خشبة المشنقة . والمعلم الامبراطور لا يجد مانعا من ان يترسيل بسربال الفيلسوف ، وان يحلل الاعدام تحليلا فلسفيا عميقا ، وذلك جوابا عن سؤال عشيقته القديمة كايزونيا ، « ماذا اصابك ؟ » فيقول : ترتيب تنفيذ حكم الاعدام ليس له في الواقع اية اهمية ، او على الاصح اوامر الاعدام متساوية في الاهمية . ويترتب على ذلك انها ليست ذات اهمية بالمرة . « الوسيلة هي الاعدام ، والغرض هو الثروة ، ولما كان الحكم هو سرقة – على حسب رأي كاليغولا – فليسرق اذن بصراحة » . وهذا الرأي الذي يذهب اليه الامبراطور هو تطوير لرأي برودون القائل ان الملكية الفردية هي سرقة ، وهو تطوير له مغزاه ، اذا عرفنا مدى تأثير برودون في فكر كامو بأسره ، وفي توجيهه السياسي ! لقد وصلت القضية شفا منحدر مخطر ، فلا بد لامين الخزانة ان يحتج وان يقف بين الامبراطور وهذا المنزلق ، لكن من غير جدوى ، فالرجل رجل منطقي يعرف حدود منطقه وهو لا يمكن ان يخرج عن جادة المنطق مطلقا ولهذا يواصل منطقه قائلا : « اذا كان للخزانة اهمية فالحياة الانسانية اذن لا اهمية لها » . وما على الذين يعدون المال كل شيء سوى ان يعدوا حياتهم لا شيء ، وما دام الامبراطور يملك السلطة فسيعلمهم ما سيكلفهم المنطق وهو في دست السلطة .

ويختتم الرجل رأيه الصريح بقوله : « سأقضي على المعارضين وعلى المتناقضات . وسأبدأ بنفسي اذا لزم الامر » . وبذا يكون الامبراطور منطقيا مع نفسه ، ومع رعيته ، ومع سلطته ذاتها . والامبراطور لا يكره شيئا كرهه للكذب والكذابين الذين يزوقون الاشياء ويتحدثون خلاف الواقع ، وهم يفعلون ذلك لانهم لا ينسجمون مع انفسهم ويجسد الادباء ، في رأي الامبراطور ، هؤلاء الكذابين تجسيدا يدعو الى المقت والنفور ولذلك يوجه كلامه الى شيريا صاحبه متحدثا عنهم بقوله : « لا تندهش ، فانا لا احب الادباء ولا استطيع احتمال اكاذيبهم فهم يتكلمون لكيلا يستمعوا الى انفسهم ، ولو انهم استمعوا الى انفسهم لعرفوا انهم لا شيء ولما استطاعوا الكلام بعد ذلك » .

« غير ان شيريا يرى الكذب واجبا مفروضا على البشر ، اذ لا بد من الدفاع عن العالم اذا كنا نريد ان نعيش فيه بينما الامبراطور يرى خلاف ذلك الراي ، فهو يجد ان القضية لم تعد موضع نظر فقد ثبت (ان هذا العالم عديم الاهمية) ومن ثم لا يكون الانسان حرا الا اعترف بانتفاء هذه الاهمية . ولما كانت الامبراطورية الرومانية كلها مملكة كذابين فمن حق الامبراطور ان يقول مخاطبا شيريا والرومانيين كافة : « على وجه التحديد انا اكرهكم لانكم غير احرار ، وفي الامبراطورية الرومانية ها انذا الحر الوحيد » . وطبيعي ان تكون الحرية ، في هذا العالم الاسير ، العبد الذليل عملا ثقيلا ، مسؤولية فادحة ، لا يستطيع فرد واحد تحمل اوزارها ، ولذلك فالامبراطور يبكي بمرارة ، وحين تسأله عشيقته كايزونيا عن سبب ذلك يجيبها الامبراطور : « يبكي الناس لان الامور ليست كما يجب ان تكون » . وعندما تلح عليه متسائلة عما به على التحديد يجيبها والشجى يقطع انفاسه : « رأسي خاوية وقلبي ممتعض . وافظع ما في الامر هذا الطعم الذي اجده في فمي ، لا هو بالدم ولا بالموت ولا بالحمى ولكن بها معا » . اما لسان الامبراطور فيكفي لكي يحركه حتى « يصبح كل شيء اسود من جديد ولكي (يعاف) الكائنات » .

وتبلغ المرارة بالامبراطور الى حد القول « ما اقسى وامر ان يصبح الواحد انسانا » لقد ضاع اذن كل شيء ، لم يعد البشر بشرا، فقدت الكلمات معانيها ، انتفت القيم انهارت الحدود، تلاشت المفاهيم، ضربت العبودية اطنابها ، فلم يبق من احرار الدنيا حر واحد ، اصبح الجميع عبيدا ارقاء الا الامبراطور ، لم يعد ابناء الانسانية الا بهائم سائمة يناقض وجودها وجود انسان فريد وحيد هو الامبراطور ! وتشعر كايزونيا شعورا عنيفا ان لا بد من راحة ، من نوم للامبراطور المتوترة اعصابه ، غير ان الامبراطور لا يستطيع النوم ولا ينويه ، وهو لذلك يقول : « لا يا كايزونيا لا فرق بين ان انام او اظل مستيقظا اذا لم يكن لي اثر فعال في نظام العالم ، وفيم تنفع السلطة المذهلة اذا لم يكن في مقدوري تغيير نظام الاشياء » ؟

وطبيعي الا يتم تغيير نظام الاشياء الا اذا استطاع الامبراطور ان يربك هذا النظام فاذا بالسماء تختلط بالبحر والقبح بالجمال واذا بالضحك ينبعث من الالام . وحين تؤكد كايزونيا على وجود الفوارق بين الاشياء تزداد حماسة كاليغولا حتى لا يتمالك نفسه من القول : « اريد ان اغير ساهب المساواة لهذا العصر . وعندما يسوى كل شيء ويوجد المستحيل اخيرا على الارض . عندئذ ربما اكون انا نفسي قد تغيرت وتغير العالم معي . عندئذ واخيرا لن يموت الناس وسيصبحون سعداء » . ومع هذا كله ، فان كايزونيا ، تصر على وجود الحب في الارض فينفجر الامبراطور غضبا ناكرا وجود ما يسمى بالحب ، فالحب لا شيء ، الشيء الوحيد الموجود هو الخزانة العامة ذلك ان الحياة نقض مكشوف للحب ، ووجود الحياة لا يأتلف مطلقا مع وجود الحب ، ولما كانت الحياة نفسها عرضا مسرحيا قصيرا ، نجد الامبراطور متحمسا في مناشدته لكايزونيا لمشاهدة مثل هذا العرض فهو لذا يقول : « الحياة عكس الحب .. وانا . ادعوك الى فرح لا يعرف الاعتدال . الى عرض مسرحي . ويلزمني ناس متفرجون وضحايا ومذنبون » .

ومن اجل ان يكون العرض عرضا واقعيا يقفز الامبراطور الى صناجات التنبيه ويبدأ الدق بها من غير توقف . الامبراطور يريد حضور الممثلين ، المحكوم عليهم بالاعدام سلفا ، يريد جمهور المشاهدين . يريد القضاة والشهود والمتهمين بغير استثناء لكي يريهم ما لم يخطر على بالهم وما لم يروه في احلامهم . كيف انه الرجل الحر الوحيد في الامبراطورية ، وكيف انه الانسان الفريد في مملكة الحيوان ! ها ان الامبراطور يرفع يده لكي ينشر الفناء في مملكته ، ينثر بذور عدله يمنة ويسرة ، عدل لا يفرق بين ظالم ومظلوم ، الكل في حقله سواسية . هذا الشريف تنتزع منه زوجته وذاك تنتهك محارمه ، وهذا يقتل ابنه او ابوه ، وكلهم في النكبة الكبرى مشتركون ، فماذا هم فاعلون ؟ الاشراف مجتمعون بشيريا ، الرجل القائد والداهية المحنك ، الذي يعرف كيف يناور ويداور وكيف يضع


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يفهم هذا الحب وهو من عالم اخر ؟ وهذا مـا يعنيه كاليغولا بقوله : « انت نقي في الخير كما اني نقي في الشر » وهنـا نجـد العدمية بابلغ صورها وحشية واشدها فظاعة ، والرفض التام لكل الوجـود بما في هذا الوجود من معالم الايجاب ودلائـل الخيـر ، والسلبية القاطعة لكل التزام ، ومن ثم يحق لسيبيون الصغير ان يتهم كاليغـولا بالوحشية والنتانة وان يتهم قلبه بالدناءة الملطخة بالدم وان يذكـره بعذابه الذي يحتمه وجود الشر والكراهية في نفسه .

يسكت كاليغولا عن هذه الاتهامات، الا انه يثور عندما يتهمه بالعزلة فيقول: «العزلة. اتعرف العزلة؟.. انت لا تعرف ان المرء لا يمكن ان يكون في عزلة أبدا واننا اينماحللنا يلاحقنا ثقل المستقبل وثقل الماضي ويحلق الامبراطور في اجواء الخيال متمنيا حلول الوحدة الحقيقية في ذات نفسه ، ولكن بغير جدوى ، لان هذه الوحدة نفسها « عامرة بصريـر الاسنان وكلها مدوية بالضجيج والصياح البعيد » ويتحدث الامبراطور في ختام شكواه عن النساء فاذا بخلاصة لذته مـن الاقتراب منهن لا تعدو ان تكون « لذة حمضية » تنز من ابط امرأة ! اما الهدوء واما المأوى الهادىء، فلا يجدهما الامبراطور، رغم كل شيء الا في الاحتقار. وبمكنسة الاحتقار هذه يجرف الامبراطور كل شيء امامه ، فلا يبقى في طريقه غير صحراء العدم التي تنعق فيها الغربان الموت هـا هـو ذا الاكتشاف الكبير يتبدى للناس اجمعين ، وبـين دقـات الطبـول والاسطوانات النحاسية ، يعلن هليكون مرافق الامبراطور النبأ السار قائلا : « اقتربوا ايها الفنانون الافظاظ . ان المعجزة المقدسة تتحقق امام اعينكم . ومن نعم عهد كاليغـولا المبارك عليكم ان الاسرار الربانية معروضة للناظرين » وتطالب كايزونيـا الجمهور بتقديم المـال واداء الصلوات . حقا ان هذا « بناء للحقيقة جديد ومثير . وانجاز لـم يسبق له مثيل » وكيف لا يكون الامر كذلـك وقـد حلت على الارض الزينات الفاخرة وقد اخذت الصاعقة والرعد والاقدار يتضمنون الـى موكب النصر المؤزر « بينما يظهر كاليغولا واقفا على قاعدة تمثال فـي زي فينوس مبتذل » . واذا بجوقة الاشراف يرددون بصوت واحـد : « يا ربة الآلام والرقص ، يا من ولدت من الامواج وكلك لزوجة ومرارة في الملح والزبد انت يا من تشبهين الضحك والاسى والحقد والاندفاع، علمينا عدم المبالاة التي تبعث الحب من جديد ، عرفينا بحقيقة هـذا العالم الذي لا حقيقة له » .

وتستمر الجوقة في الدعاء والتضرع والالتماس مـن فينوس ان تنزل على الناس الاشراف بركات الرحمة وحمم العذاب ، بان تفتح بابها لابنائها الضالين لتدخلهم في عراء ملاذها غير المكترث الاليم وان تمنحهم عواطفها التي لا مبرر لها والامها المجددة مـن العقل وافراحها التـي لا مستقبل لها » وهكذا تحسن الجوقة ايما احسان في عرض افكـار كامو باسلوب شاعري جميل مقصود ، ليكون لذلك تأثيره في النفوس، لان اللاجدوى التي يعمر بها كتاب كامو « اسطورة سيزيف » تبقى بغير جدوى اذا لم تحتضنها شاعرية الجوقة هـذا الاحتضان ويكـون لكاليغولا ما يريد من نهاية طيبة لحفلة تنصيبه فينوسا على الاشراف الفانين ، الامر الذي يرضيه كثيرا ، ولذلك فهو يقول في ختام الحفلة: « لكم ما طلبتم . دعواتكم قد استجيبت » ، وبعـد ان يركع الاشراف واحدا تلو الاخر ، يقدمون اموالهم وينصرفون وقد اذن لهـم كاليغـولا بذلك بقوله : « ايهـا السادة تستطيعون ان تنصرفوا وان تنشروا فـي المدينة خبر المعجزة المدهشة التي اتيح لكم ان تشاهدوها » .

ويعود كاليغولا الى الحوار مع سيبيون الاثير لديـه ، فيتناقش معه في جملة ما يتناقش عن الطغيان وعـن معنى الطاغية فيجيبـه سيبيون ان الطاغية هو : « روح عمياء » الا ان كاليغولا يـرد عليـه : « ليس هذا مؤكدا يا سيبيون . ولكن الطاغية رجـل يضحي بالشعوب في سبيل افكاره او طموحه . وانا ليس لي افكار ولم اطمع في شيء من شرف او سلطان » . ويدعي ان ممارسته للسلطان ليس الا من باب التعويض . والدليل على ذلك انه لو كان طاغية لكلفت اقل حرب يقوم بها اكثر من الف مرة من نزوات هواه وكاليغولا لا يفهم القدر وتصرفاته ولا يدرك موجبات هذه التصرفات ولما كان القدر قد وضعه في موضعه الذي هو فيه، فانه مضطر ان يجعل مـن نفسه قدرا وان يتحمـل مسؤوليته بذاته ، هذه المسؤولية التي تتخذ شكلا احمق غير مفهوم .

غير ان سيبيون يرى في ذلك الكفر بعينه ، فيرد عليـه كاليغولا بقوله : « لا يا سيبيون بل هو فن الدراما ! وغلطة الناس جميعا انهم لا يؤمنون بالمسرح ايمانا كافيا ولولا ذلك لعرفوا انه يجـوز لاي انسان ان يمثل المآسي السماوية » بان يتقمص جبروت السماء ، و (يكفي) لذلك (ان يقسو قلبه) . غير ان سيبيون لا يقتنع بهذا القول لانـه يرى - تمشيا مع منطقه - ان التقمص الذي اصطنعه كاليغولا قـد يتحول الى عدوى تعدي غيره من الآدميين ، ممن ياكل قلوبهم الحقد ، وتنهش نفوسهم المطامع ، فيغرقون بالنتيجة تقمص كاليغولا نفسه فـي بحر من الدماء .

ويعود كاليغولا الى خيط امله الاخضر ، وها هو ذا مـع مرافقه هليكون مرة ، فاذا بالقمر يقفز من بين يديه حينا ليعود اليهما حينـا اخر ، وعندما يتساءل هليكون عن المؤامرة التي تحاك ضد الامبراطور ، ينسى كاليغولا موضوع المؤامرة من اساسه ، لان الخيط الـذي يصله بالقمر لا يزال سليما قويا ، ولذلك يجيب اجابة خارجة عن الصدد اذ يقول : « بل لقد حصلت عليه (يعني القمر) تماما . صحيح مرتين او ثلاث مرات لا غير » . ويصف الامبراطور الذاهل احدى هـذه المرات بقوله : « كنت مضطجعا . وكان في بادىء الامر دمويا فـوق الافق . ثم اخذ يرتفع بسرعة متزايدة .. وكلما زاد ارتفاعه صار اكثـر صفاء وقد اصبح كبحيرة ماء في بياض اللبن وسط هـذه الليلـة المليئة باحتكاكات النجوم . ووصل عندئذ الى اعلى درجة ، رقيقا ، خفيفا ، عاريا ، وعبر عتبة الحجرة ووصل الى فراشي .. وغمرني بابتسامته وبريقه » .

واذن لقد حقق الامبراطور ما حلم به ، وكثيرا ما تحققت الاحلام، في هذا الوجود المليء بالمفارقات والاحلام . ولذلـك يصح للامبراطور الا يهتم بما يحاك من مؤامرات ضده ، فهو وقد وهب البصيرة النفاذة والنظر البعيد يعرف قاتله سلفا ، ولما كان لم يستنفد بعد كل الوسائل التي تعينه على العيش ، فهو لهذا السبب يريد الحصول على القمر ، وهذا ما يجعله يامر هليكون بالاتيان به فورا .. ويذهب هليكون لينفذ امر امبراطوره المطاع . وبعد ان يخرج هليكون يدخل عليه رجل يعرف بـ (الشريف العجوز) جاء هذا الرجل ليخبـر الامبراطور بتفاصيل المؤامرة ، وما ان اصغى اليه كاليغولا وألم بما يقول حتى انفجر فـي وجهه قائلا : « اذا كان ما قلته صحيحا ، فيلزمني ان افترض انـك تغدر باصحابك ، اليس كذلك ؟ » ولما كان الرجل ليس خائنا وليس جبانا باعترافه ، فالمؤامرة اذن ليست سوى مزاح في مزاح ، وهكـذا ينتهي الى تصديق ذلك ، وقبل ان ينتبه من اغفائه يامره الامبراطور بمغادرته لانه لا يستطيع تحمل رؤيته ذلـك ان « الرجـل الشريف حيوان نادر في هذا العالم » .

وتصل خطة المؤامرة الى الامبراطور ، فياخذ في التامل فيهـا ، ثم يتجه الى المرآة ليتامل صورته ، بعد ان يكون قـد اوعز الى احـد الحرس بجلب شيريا رأس المؤامرة . والامبراطور في وضع تاملي يحمله على ان يناجي نفسه قائلا : « كنت قد قررت ان تكون منطقيا يا ابله، ولكن المشكلة هي معرفة الى اي حد يستمر ذلك .. اذا جلبوا القمـر لك فسيتغير كل شيء سيصبح المستحيل ممكنا .. وسيتغير وجـه الاشياء جميعا مرة واحدة » . ولكن كاليغولا المنطقي الذي يعرف حدود الاشياء ، يعرف ان الحصول على القمر مستحيل وحتى اذا لـم يكـن مستحيلا فجلبه اليه لا يعني مطلقا حرفه عن جادة المنطق ، ولذلـك فليس لكاليغولا الا ان يتابع المنطق والسلطة الـى النهاية ، والهجر

الـى النهاية » .

وبهذا التصوير العدمي المفرق بالسلبية يعرض لنا كامو شخصية منسجمة مع وضعية متوترة اشد ما يكون التوتر قسوة وعنفا وتشنجا. ولكامو ـ ولا شك ـ فضل غير منكور في اجادة رسم هـــذه الصورة وبهذه الكيفية الغريبة . ويتواجه الفريمان ، فاذا بالامبراطور يوجه الى شيريا سؤالا جديا واضحا بقوله : « .. لماذا تريد ان تقتلني ؟ » فيجيبه شيريا « اراك ضارا وقاسيا وانانيا ومغرورا . وانا احب الامن واحتاج اليه . ومعظم الناس مثلي » . غير ان الامبراطور يعود الـى المنطق ملاذه الامين فيقول : « الامن والمنطق لا يتفقان » . وحين يؤكـد الامبراطور على ذكاء شيريا يطالبه بامرين ، اما دفع ثمن هـــذا الذكاء او نكرانه لذلك يسأله : « لماذا لا تريد ان تنكره (ويعني الذكاء) ولا تريد ان تدفع (ثمنه) ؟ » فيجيبه شيريا : « لانني اريـــد ان اعيش وان اكون سعيدا ، واعتقد اننا لن نستطيع ان نحصل على هذا او ذاك اذا دفعنا بالعبث الى اقصى مداه » .

وبشيء من اللامبالاة العجيبة يحرق الامبراطور دليـــل المؤامرة ، المخطط الذي قبض عليه ، لكي يبعد الجريمة عن وجه شيريا ، فيعيد اليه صفاء البراءة ، اما شيريا الذي لا يمكن ان يتنصل عـن الجريمة فيمضي في خطته الى نهايتها ، ها هو ذا يحاول بكل وسائله ان يغري سيبيون بالانضمام الى المتآمرين مستغلا قتل والده الا ان سيبيون مـع اعترافه بهذه الحقيقة يحاججه من زاوية اخرى قائلا : « صحيح يـــا شيريا ، ولكن شيئا ما في نفسي يشبهه. نفس الشعلة تحرق قلبينا». ولذلك فهو لا يستطيع الاختيار ، فضلا عمـــا يالم منه لمـــا يقاسيه صاحبه . هذا اذا تركنا جانبا مصيبته الكبرى ، فهمه لكل شيء الذي يتجلى في تشدده في طلب كل شيء . وهذا التشدد هو اليأس عينـــه بالقياس الى شيريا .

ولذلك يحدثه عن هذا اليائس قائلا : « .. لقـــد غرس فيـــك اليأس ، وغرس اليأس في نفس نقية جريمة تفوق كل ما ارتكبه حتـى الان من جرائم » . ويدخل هليكون الى حيث شيريا يدبر الامـــور ، وينسج خيوط المؤامرة نسجا وئيدا محكما ، فيفصح هليكون عن وفائه لسيده واستعداده للدفاع عنه حتى ضد رغبته . امـــر مثير يحمل شيريا على القول : « لا افهم شيئا ممـــا تقول ولكني اهنئك علـى اخلاصك . انا احب الخدم الاوفياء » ، هذا الذي يقوله شيريا سخرية ما بعدها سخرية ، يثور هليكون على اثرها فيقول : « .. نعم انـــا اخدم مجنونا من تخدم انت ؟ الفضيلة ؟.. انا ولدت عبدا ، اذن فلمن الفضيلة قد رقصته تحت السياط .. كايوس لم يلق علي خطبه بـــل فك رقبتي واخذني الى مقره ، وهكـــــذا استطعت ان اشاهدكم ايها الفضلاء ورأيت ان وجوهكم مدنسة وروائحكم كريهة .. كرائحة من لـم يعانوا ابدا من شيء ، ولم يخاطروا بشيء » . انه رأي القلوب البالية والايدي التي تنم عن الدهاء وامارات البخل البادية علـــى الوجوه . فهل هؤلاء هم قضاة ؟ هؤلاء الذين يتاجرون بالفضيلـــة ويحلمـــون بالامن . هؤلاء الذين سيموتون فزعين ، حتى من غير ان يعرفوا انهـم قد قضوا اعمارهم في الكذب . هليكون يعـرف اذن حاشية الامبراطور معرفة لا تطالها معرفة .

ثم يستدعي كاليغولا الاشراف الى القصر فيدفع بهم الواحد تلـو الاخر الى الموت ثم يتوقف عن هذا الدفع ، بعد ان يكون قد اتى علـى ثلاثة منهم ليقول : « .. لقد كان عهدي حتى الان مفرطا في السعادة لا طاعون ولا دين قاس بل ولا انقلاب وباختصار لا شيء ممـــا يجعلكم ذكرى للاجيال القادمة » . ولاجل ان يعوض عن حذر القدر الذي جنب البلد هذه الكوارث لا بد للامبراطور من ان يكون اول حلقة في هــــذه السلسلة ولذلك فهو يقول : سأحل انا محل الطاعون » . ثـــم يؤتي بشيريا فاذا الحديث حديث كتب » واذا بصاحبنا مؤلف لكتاب تحت عنوان « السيف » وبعد مجاملة المقابلـة المعتـادة يواصل الامبراطـور حديثه قائلا : « هذا هو المؤلف الوحيد الذي الفته ، ولكنه يعتبـــر ايضا الدليل على انني الفنان الوحيد الذي عرفته روما .. الوحيـــد الذي يوفق بين فكره وبين افعاله » . ومصداق ذلك قول الامبراطور : « غريب ، ان لم اقتل احس باني وحيد .. لا ارتاح الا بين الموتى » . ويكون القتل سببا وجيها لانتشار لهيب الثورة في نفوس الشعب بقيادة شيريا ، ويطبق الطوق رويـدا رويـدا حـول عنق الامبراطور الـذي يهب الحياة والموت بنزوة من نزواته ، ويدق الثوار بايديهم على بـاب القصر الفخم . ويدخل شيريا وصحبه ليدكوا القصر بما فيه على رأس صاحبه ، وتنطلق السيوف والخناجر الــى جسد الامبراطور لتمزقه اربـا اربـا .

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

فـدائي

★

وفجاة تشقق الجدار ..!
وازهرت براعم النهار
في ليلنا المليء بالاشباح والاسرار
في يأسنا المرير ... في ارجوحة الدوار
وفجاة تشقق الجبل ..!
عن مارد يصهر ليل اليأس والقيود
عن ثائر يحمل في ثورته الخلود
يزرع في مدارنا الصمود
ينفخ فينا الروح والحياة والوجود
ليورق الصباح من جديد
لتزهر الدفلى .. ويحيا الشعب من جديد

لك الحياة والخلود يا اخا النصر
فانت في كفاحنا مد بلا جزر
وانت في نضالنا ثار بلا أبعاد
جرح بـلا ضماد
نجم مضيء سابح في فلك الجهاد
يعيش في القلوب .. في العيون
يعيش في الرؤوس حلما اخضر اللحون

دمشق — منذر لطفي

شعراء لبنانيون باللغة البرتغالية

بقلم رياض معلوف

* * *

كان أول من حدثني عن شعرائنا باللغة البرتغالية صديقي شاعر البرازيل الاكبر وعضو المجمع العلمي فيها ، الدكتور مونتي دل بيكيا الذي قال عنه الكاتب العالمي جورج دوهاميل : انه من انبغ شعراء أميركا اللاتينية والمعهم . ولذلك كان لشهادة ـ دوهاميل ـ شأنها واهميتها .

ثم صادقتهم وجالستهم وعرفت شعرهم . وأحاول الان تعريب بعض قصائدهم بلغتنا ليتسنى للمهتمين معرفتهم من آثارهم التي تنم على شاعرية رائعة وابداع عظيم وتفنن لا يجارى في مضمار الشعر البديع الخالد .

وكانني المح في مقطوعاتهم ملامح لبنان والشرق العربي وتتراءى لي في منظوماتهم خيالات عمر بن أبي ربيعة ، وزهير وابي نواس وبشار ، رغم جهلهم لغتنا .

فدماء وطنهم الأول تتأجج في عروقهم شوقا وحنينا الى تربة أجدادهم وابائهم ، ونداء الدم أصدق نداء وأوثق قربى ، فلنماشهم في أغاريدهم الممتعة ! فالصوت صوتنا ، والروح روحنا ، والشعر شعرنا .. وهذه تراجم ثلاثة منهم : الدكتور سلمون جورج شاعر وخطيب وعضو المجلس النيابي لولاية سانبولو « البرازيل » ومن مؤلفاته : شرقيات ـ ومخيم صحرائي ـ والدكتور جميل منصور الحداد الشاعر الحائز جائزة الشعر من المجمع العلمي البرازيلي . ومن مؤلفاته : الصلوات السود ـ وحبيبي القمر ـ . وفرنسيسكو كرم الشاعر والموظف الكبير في وزارة المعارف البرازيلية ومن مؤلفاته : ساعة المتعة .

وبذلت جهدي للاتيان بترجمة صادقة أمينة مع مراعاة الاصل على قدر المستطاع ، وما ذلك بالسهل دائما، كما لا يخفى، لان بين العربية والبرتغالية متناقضات كثيرة في التفكير والتعبير . ولعلني بلغت القصد ، والامور بمقاصدها .. فالى هذه ـ الوليمة الشعرية ـ نحن مدعوون للاستمتاع بما لذ وطاب من غذاء الروح ، فنعم الغذاء !

١ ـ سلمون جورج

البدوية

أيتها البدوية الحسناء ـ الرشيقة الرقيقة .. ذات العيون اللوزية .. اعطني شفاهك الخرافية .. الاسطورية ! الشهية النكهة كالتمر الناضج !. تمايلي وارقصي رقصتك المخصرة كالاعصار الخاطف ! ـ فقافلة خطاياك .. تفرج همي ! .. فلا جنائن بغداد الملأى بالورود ولا الموصل واوديتها يا حبيبتي .. توازي نفحة من خديك .. ولا طنافس العجم عرفت اقداما كأقدامك الناصعة ! « من ديوان شرقيات » .

٢ ـ منصور جميل الحداد

شعلة ورماد

حطمت الكأس المملوءة بالخمرة ... وعندما كان الحب في أوجه قتلت الحب ! وعزائي الوحيد في محنتي هذه : ـ « تحول هذه الشعلة الى رماد العدم ... » .

وليمة الحب

في هذه الوليمة الشهية .. التي فيها تشتعلين واشتعل! لان كأس المتعة .. تجذب وتطفي في جسمك المضمخ بعتيت المسك والعنبر ودمك الصارخ ودمي المتمني .. يذكرانني في هذه الهنيهة الصاخبة بالرغبة . ـ شعلة تقبل شعلة « من ديوان حبيبي القمر » .

٣ ـ فرنسيسكو كرم

الظهيرة

رايتك شامخة باسقة ـ تهوين علي .. كالشمس التي غربت في نفسي .. بعدما سحرتني ! .. « من ديوانه ساعة المتعة » .

نشيد الرؤية

صعدت طرفي الى قدميك الصفيرتين وملامح وجهك كنور الشمس الذي يلتهم الشجرة شيئا فشيئا .. وانا أعيش في دمك ـ كما تعيش الشجرة في الارض ـ وازهر في عيونك .. وائمر في خدودك ! .. « من ديوان ساعة المتعة » .

البهجة

تفتحت عيني فجأة على جسمك الناصع البياض فملأها نورا .. وعيناك وقعتا .. كثمرتين ناضجتين على تربة جسمي البنفسجية ! وجسمك سل كخنجرين .. كادا يقتلانني ... وانتزعا من عيوني ! .. « من ديوان ساعة المتعة » .

تمثال الحسن

عيناي كيدي النحات وبنان وعناية ابتدعاك .. صاعدتين بحسنك حتى برج الشمس ! وكل اتزان الايام وانسجامها تتلاقى في تقاطيعك المنسجمة المنسابة كالغدير العابر ، الهادر .. « من ديوان ساعة المتعة » .

بوابة الطين

مجهولة الاهواء .. تلك رؤى
أبعادها ترتج في بابي
وتمر بي اكوانها مزقا ..
بالطين أمسح جرحها النابي

بلهاء ، هذا الطين في دمنا
اثم يغذينا باوصاب
طين ، حملنا كل شقوته
بالنار ياكلنا .. وبالناب
.. واضيع ..
ــ اين الدرب ..؟
أي أسى ..؟!
أقتاته في ليل أتعابي ..
أدخلتني بوابة ، هرمت
أسوارها تاريخ أحقاب
بوابة رفعت علىٰ خطل
حراسها أقزام أغراب

.. وصرخت ، يا ... فاتيت ضارعة
وكآبة تحبو بمحرابي
إنسانة عبرت فوأسفي

حرقت بأرض التيه أخشابي
الرمل يشرب نسغها ولها ..
والريح تجرح بالضنى ، غابي ..

يا ضلة الازمان .. تلك رؤى
أبعادها صلبت بأعتابي
شرس ابدد حلمها الما
واليأس يلفح وجهي الكابي
وذكرت ماضينا ، وكان سدى
صحراؤه روحي وأعصابي
بلهاء هذا الطين يؤلمنا
شكا ، ويغمرنا باوشاب
وتقول لي أنثى : اليك ، انا
في طينك المجهول أسبابي

يا نقطة في البدء آخرها
رضعت بوادي الموت
أعشابي !.

دمشق — اسماعيل عامود

٤ ــ اسكندر شفيق معلوف

وليسمح لي القراء الكرام ان اضيف الى هؤلاء الشعراء شاعرا ناشئا ذات عربة وثابة هو اسكندر شفيق معلوف ــ رغم الذي ما بيني وبينه من صلة القربى ــ وذلــك لاستكمال هذهاللمحة من شتىنواحيها وفي ما يلي قصيدة ــ انا البحر ــ من شعره بالبرتغالية نقلها الى العربيــة شعرا والده أخي الاستاذ شفيق والابن سر ابيه :

انا البحران اصخب مضيتمجررا — بذيلي أشلاء الضحايا ورائيا
ولو غمزتني نجمة الصبح وارتمت — ممرغة جسما على الشط عاريا
لفرت عليها من صخور حضنها — ورحت أعض الصخر بالشدقراغيا
فترتد عنه وهي تنفض حولها — رجوما تهاوت واحدا ثم تاليا
هي القبل الحرى تواصلني بها — فتهوي على بعد ولكنها ليا

وبذلك دلالة وافية على عظمة اللبناني المهاجر وابنائه الذين شقوا مثله ــ طريقهم الى قمةالمجد بثقافتهم ورقيهم وطموحهم وقوافيهم التي طبقت الافاق وتناقلها الشرق والغرب معا .

فمن هنا من هذه الصخور الرمادية المتطلعة بكبر واباء الى زرقة البحر والسماء ــ قدت هذه القلوب الحساسة وانتزعت هذه المخيلات الخصبة ، ومن هنا .. نعم ! أرسلنا هذه القوافل التي سارتالى مجاهل الدنيا.

ومن عندنا .. انطلقت هذه الاسراب من العنادل التي أعطت البشرية شعرا وانشادا وطربا ــ فكأن الشعر ولبنان توأمان لا يفترقان ! ..

زحلة ــ لبنان — رياض معلوف

بلاغة التضمين في الشعر الحديث

بقلم عدنان بن ذريل

* * *

لقد اهم (التضمين) ، بأنواعه المختلفة (١) ، الاستعانة والايداع والرفو والحل والعقد والتلميح ، وخاصة التلميح ، الشعراء والنقاد وايضا البلاغيين في الخمسينيات والستينيات من القرن الحالي ، القرن العشرين ، وذلك بفعل انتشار المذهب الحياتي الحديث في الشعر العربي المعاصر ، واعتماده على التلقين الرمزي ..

واذا كانت (الرمزية) كمذهب في التعبير الشعري، سادت في الثلاثينيات وما تلاها من هذا القرن، واعتمدت على موسيقى الاسلوب ، الفاظه ، وجمله لتحريك اللاشعور ، وتنبيه اللاوعي .. فأن (الحياتية) في الشعر الحديث ، وخاصة الحياتية الرمزية اليوم تصف الحياة ، وتتأمل الوجود ، وتفند المواقف ، وتلقن كثيرا من تجاربها ، ومعانيها بواسطة الرموز النفسية ، والحضارية ، والانسانية ..

وذلك هو المميز الفارق بين الرمزية كمذهب ادبي في تحريك اللاشعور ، وبين الحياتية الحديثة التي تصطنع رمزية القصص ، والاساطير في اتجاه تأملي ، او تفنيدي او تلقيني ، فردي او جماعي ..

واذا اعتبرت الصور البلاغية الرمزية ، كالرمز ، والتشبيه الرمزي ، والاستعارة الرمزية ، ثم الكناية الرمزية ، صورا بلاغية مستحدثة (٢) في الاسلوب الشعري ، من حيث فنيتها ، ومن حيث المفاهيم الشعرية التي وراءها ، وعرفت ادبنا العربي الحديث مع موجة الرمزية في الثلاثينيات وما تلاها من هذا القرن .. فأن (التضمين) بأنواعه المختلفة ، والحديثة ، اكثر حداثة في ذيوعه ، وانتشاره اليوم ، وعلى الخصوص بالفنية الحديثة التي له ، والمفاهيم الشعرية الحديثة التي تصطنع اليوم التلقين الرمزي ..

وقد كان ساعد على الترسل الشعري الحديث في الحياتية الحديثة في الشعر العربي ، الحديث والمعاصر ، اعتماد (التفعيلة) بدل البحر في الوزن الشعري ، فانبسطت امام الشعراء آفاق القول الشعري ، فيما أسموه (الشعر الحر) ، اي المتحرر من قيد البحر ، عروضه ، وقوافيه ، الى التزام التفعيلة ، المتحررة التقفية أيضا ..

لقد كانت (الرمزية) تتصرف بموسيقى البحور ، وتركيبات التفعيلات ، قبل ظهور الشعر الحر ، يدلل على ذلك نظم كثير لسعيد عقل ، وبديع حقي ، وغيرهما .. ولكن الشعر الحر ، وهو حياتي وحديث اعتمد التفعيلة للوزن الشعري ، واهتم بتأمل الوجود ، وتفنيد المواقف المختلفة ، الانسانية والحضارية ، وتلقينها بواسطة الرموز ، وخاصة التضمينات بأنواعها ..

وعندما انتشرت مدرسة الشعر الحر ، بحياتيته ، وشعبيته ، وتلقيناته ، صارت الرمزية به الى رمزية حياتية سردية ، وحضارية ، وتحللت من سلفيتها المستحدثة ، أو من اقتصارها على الهم الفني في تحريك اللاشعور .. فأقبل الشعراء العرب المحدثون في العراق وسورية ولبنان ومصر على الاساطير القومية ، والحكايا الشعبية ، والاحداث التاريخية، والحضارية يستخدمونها كرموز ، أو تضمينات رمزية ، وكان في طليعة هؤلاء الشعراء : بدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي ، وأدونيس ، وخليل حاوي وغيرهم ..

وفي المقال النقدي والبلاغي ، ظللنا ندعو الى تكامل النقد الادبي ، والبلاغة ، التكامل الحي ، المجدي ، بحيث يتساندان ويترافدان ، ويساعد احدهما الاخر .. واننا بالفعل لم نجد جدوى من نقد أدبي حديث لا يقوم على الارث النقدي ، والبلاغي القديم الذي لتراثنا المتجدد دائما ..

ونحن من المؤمنين بأن (النقد الادبي) الحديث يجب ان يبحث عن معاييره ، وأصوله في تطور بلاغتنا العربية، وتطور أصولها ومجالاتها ، لا في أي شيء اخر دخيل .. فيظل النقد الادبي بذلك قريبا من الاعتبارات البلاغية العربية ، المتوارثة والمتطورة ، ومن مصطلحاتها المتوارثة والمتطورة أيضا ، وهذا ما تعكسه هذه الصفحات البلاغية، التي نخصها بدراسة بلاغة التضمين العادي منه او الرمزي ..

(التضمين) ، في البلاغة العربية القديمة ، من محاسن الكلام ، وهو اليوم صورة اسلوبية ، صورة فكر وتحسين (٣) ، تعكس ابعاد التجربة الشعرية ، طاقاتها ، وظلالها ..

كان (التضمين) عند البلاغيين القدامى في الاساس ايراد كلام الفير ، او شيء منه ، ثم اضيف اليه (التلميح) وهو ذكر حادثة او قصة .. فلم يؤثر في مدلوله العام ، اي ايراد كلام الفير ، او بعضه ، ولذلك اعتبره بعض المتأخرين من السرقات الشعرية ..

وأنواع (التضمين) عندهم هي : (الاقتباس) ، وكانوا يطلقون هذا المصطلح على ايراد جمل من القرآن الكريم ، او الحديث الشريف في النظم .. و(الاستعانة) ، وكانوا يطلقونها على ايراد بيت او اكثر من الشعر في النظم ، فأذا قل التمثل بكلام الفير الى مصرع ، او جزء

منه فهو - بمصطلحهم (ايـداع) ، او (رفـو) .. و (الحل) في مصطلحهم هو نثر النظم ، و (العقد) هو نظم النثر .. وكل هذه الانواع متوفرة في الشعر العربي الحديث ، والمعاصر ..

ثم هناك (التلميح) ، وهو نوع من التضمين ، يراد منه ذكر حادثة او قصة اشارة او تفصيلا ، واطلق عند المتاخرين على الاشارة الى الشعر دون ايراد نصه: وهذان النوعان من التلميح موجودان اليوم بكثرة **فـي الشعـر** العربي الحديث ، والمعاصر ..

هذه الانواع المختلفة ما موقف العصر الحديث منها؟! وهل طرأ جديد على فنيتها ، او اسلوبها ؟!

لنقرر ، قبل الاجابة على ذلك ، اننـا سنصطنع مصطلح (استعانة) **ندل به على انواع التضمين التـي** يراد بها ايراد كلام الغير ، وليس فقط ايراد بيت فاكثر ، ونطلق على هذه الانواع مصطلح (تضمين استعانة) ، بما فيها الاشارة الى الشعر دون ايراده ..

وسنطلق مصطلح (تضمين سردي) ، او (تضمين تلميح) ، على التلميح لحادثة ، او قصة ، سواء اوجز القول فيه ، او فصل الى حد مـا ، العادي منـه او الرمزي ..

واذن ، يمكننا ان نقرر مبدئيا ، على سبيل الاجابة على السؤالين السابقين :

ان الاقتباس والاستعانة والايداع والرفـو والحل والعقد والتلميح ، والتي كانت مـن (محاسن الكلام) ، كما قررت البلاغة العربية القديمة ذلك ، هـي اليوم كذلك .. الا ان (التحسين) اليوم ليـس فقط لفظيا ، وانما هو في الوقت نفسه معنوي ، ناهيـك بأن بعض الصور الرمزية ، في التضمين ، كما سنرى ذلك بعـد قليل ، او بعض الرموز هو صور فكر (٤) ، للتعبير عـن مواقف الشاعر الذي يصطنعها ..

لنقل بعبارة اخرى ، ان (الاستعانات) اليـوم ، بالمدلول الحديث والواسع الذي نقترحه ، صارت الى ان اصبحت هي نفسها صورة (التعاطف) **الذي للنفوس مع** التاريخ وشخصياته ، والحضارة ورموزها ، والتـراث حكاياه وشعره ، وكذلك (التلميحات) صارت الـى ان اصبحت هـي نفسهـا **صورة المعايشة للشخصيات** التاريخية والشعبية وغيرها ..

وبذلك كله يكون عمل الشاعر الحديث ، في هـذا التعاطف (٥) ، وتلك المعايشة ، قد أضاف الـى هـذه الاستعانات ، والتلميحات خبرة العصر الحديث ، وفنيته ، من التقرب من الحياة ، من التغلغل في الحياة ، مـن بعث الحياة ..

ويمكننا أيضا ان نقرر ان (التلميح) ، والذي كان يطلق على ذكر حادثة ، او قصة ، اشارة او تفصيلا ، او يطلق أيضا على الاشارة الى الشعر دون ايراده ، كـان يتضمن بالفعل مدلول الاشارة الى (سرد) ، ولـو الى التذكرة بشعر قيل ، فما ليس ذكرا ، او اشارة لحادثة ، او قصة ، او شعر قيل ليس تلميحا ، رغم اننا اليـوم نصطلح ان نعتبـر الاشارة الى شعر دون ايـراده ايضا استعانة ، كما سبق تقرير ذلك ..

واذن ، عنصر الاشارة الى سرد ، ما فنيته اليوم ؟!.

الا يؤثر تنوع (السرد) ، والتلميح فيـه ، او تنوع موقف الشعراء مما يسردون ، او يلمحون اليه ، فـي الصور البلاغية ، او التركيب النحـوي ، فـي اللفظة والجملة والاسلوب على السواء ؟!..

وفي الحقيقة ، ان بلاغة التضمين اليوم ، والتـي تلتقي مع بلاغة الرمز والرمزية فـي نقاط عدة ، كمـا سنرى ، جعلتنا نستوجب الحذر فـي تحليل (الصور البلاغية) الناشئة عن التضمين علـى اختلاف انواعه ، وتمييزها ، بل عزلها عن الصور البلاغية الرمزية ..

قبل كل شيء ، ان مجرد ذكر اسم علـم مثـل (شهريار ، شهرزاد ، سندباد ، الخضر ، نادر الاسود ، الحلاج ، وغير ذلك ..) لا يكفي وحده ليكـون تلميحا ، او تضمين تلميح ، او تضمينا سرديا .. لان تحت هـذا الذكر تندرج انواع من الصور البلاغية المختلفة ، تتميـز فيما بينها ، وتتفاضل ، من حيث الحقيقة ، والمجاز فيها، او من حيث الاستعانة ، والتلميح ، والرمز ..

والفارق بين التقرير ، والرمز في اصطناع اسمـاء الاعلام هو ان :

(التقرير) فيها ، هو مجرد ذكر علم مـن الاعلام ، كواقعة تاريخية من التاريخ واليه ..

و (الرمز) فيها هو اصطناع اسم علم من هـذه الاعلام في اسقاط ما في نفس الشاعر ، او فـي مقصود تعبيره من وجدانات او معان ، كان هذا العلم اشتهر بها، وتحلى بها .. وجاء الشاعر يستشهد بهـا فـي نفس مدلولها التاريخي كما حدث ، وسبق ان وقع ، ويجـوز له ان يغني هذه الدلالة ، ويطورها ، شريطة عدم تحويرها، او افسادها ..

و (التلميح) لا مجال له في مجرد ذكـر اسمـاء الاعلام ، من حيث ان مجال المفرد لا يتحمل أي سرد ، ولا بد للتلميح من مقومات السرد ، او التنويـه بحادثـة ، وقصة (٦) ..

فمثلا عندما يقول الشاعر منذر لطفي ، في فدائية:

لها عين ، كميدوزا
لها عزم لها وطن ، كميدوزا
تذيب صفائح الفولاذ بالنظر
تحيل الفارس العملاق تمثالا من حجر
تصعقه بلا نار .. بلا شرر ،
وتغرقه بلا ماء .. بلا مطر ..

(ميدوزا) هنا مجرد اسم علم اسطوري يشبه بـه

الشاعر منذر لطفي الفدائية ، والتضمين هو في الاشارة الى وطن ميدوزا ، وقصة عينها السحرية التي كانت تحيل من يحاول اجتياز وطنها الى تمثال من حجر ، وقد ذكرها الشاعر ، واضاف انها تصعقه بلا نار بلا شرر ، وتفرقه بلا ماء بلا مطر ..

وسئل ذلك قول (مجاهد عبد المنعم مجاهد) ، على لسان معشوقة ترد عنها محبا فقيرا ، قال :

ولست سليمان تملك كنزا
ولا شهريار
لتنفق من سعة شهريار
ولست الرشيد
لاعطيك جوهرة او امارة
ولست المغني الجميل ...

اسماء الاعلام وردت هنا أيضا في حديث عادي ، في حين التضمينات تعلقت بفحوى التوضيحات ، من امتلاك الكنوز ، او عطايا الرشيد ، واقتطاعه الامارات ، وان لم نسمع بالفعل بأنفاق شهرزاد في سعة ..

وكذلك الحال في قول خليل حاوي ، يخاطب الشباب في الاقطار العربية :

ما كان لي ان احتفي
بالشمس لو لم اركم تغتسلون
الصبح في النيل ، وفي الاردن ، والفرات ..

فالنيل ، والاردن ، والفرات هنا مقصودة لذاتها ، وبذاتها ..

والحال كذلك في قول بدر شاكر السياب في الشعب العراقي :

وفي العراق جوع ..
ما مر عام ليس في العراق جوع ..

المقصود من اسم العلم هنا هو القطر العراقي ، الذي يجوع شعبه ..

ومثل ذلك الاسلوب الحديث في مخاطبة اشخاص بعينهم ، احياء او اموات ، ومن الامثلة عليها قصائد خليل خوري المسماة رسائل الى ابي الطيب ، وهي وصفية انتقادية (٧) .. ومنها قول محمد الفيتوري يخاطب المغني الزنجي بول روبنسون :

يا بول روبنسون
مات الطفل الزنجي
وماتت جدته العمياء
الا كلمات
قالتها في اذنيه ذات مساء :
يا ابنائي غنوا للشده ،
غنوا للشده ،
لا يخلع انسان منكم جلده ..

وغير ذلك .. كل هذه الشواهد المقصود من اسماء الاعلام فيها مدلولاتها في ذاتها ، وقصدها في ذاتها خطوة نحو التضمين ، التضمين السردي ، تضمين التلميح ، واستعمالها عادي في سياق عادي ..

الا ان تمت اليوم اساليب تستعمل اسماء الاعلام في اتجاه نفسي رمزي ، ابتداء من مدلولاتها نفسها ، مثل ذلك قول ادونيس في شهريار :

لم يزل شهريار
في السرير المسالم ،
في الغرفة المطيعة ،
في مرايا النهار ،
ساهرا يحرس الفجيعه ..

فان التركيب النحوي (لم يزل) ، الدال على استمرار الحدث نقل القول من حقيقته الى المجاز ، والرمز ..

وكذلك قول بدر شاكر السياب في نهاية الظالمين :

اكاد أسمع العراق يذخر بالرعود ،
ويخزن البروق في السهول والجبال ،
حتى اذا ما فض عنها ختمها الرجال ،

---

(١) راجع في «الاديب» الغراء مقالاته السابقة عن التضمين، وهوامشها، في الاعداد : حزيران ـ يونيو ١٩٦٨ ، ايلول ـ سبتمبر ١٩٦٨ ، وتشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٨ .. (٢) نشرنا العديد من البحوث في دراسة بلاغة الرمزية منذ عام ١٩٤٧ ، وأن تقري القول ، وتدعيمه أيضا في الصور البلاغية الرمزية هو لنا ، وقد نشرنا فيه المقالات والكتب .. (٣) ـ كانت علوم المعاني والبيان والبديع تدرس صور البلاغة والاسلوب، والتي أوصلها المتاخرون الى مئة ونيف ، وقد صنفنا نحن هذه الصور البلاغية المختلفة تصنيفا حديثا الى صور تعبير ، وصور تحسين توزعت أهم صور الاسلوب والبلاغة ، والتصنيف أصيل لنا نحتناه على التصنيف اليوناني الروماني المتوارث لها ، وتفصيله في كتابنا : الاسلوب وصور البيان .. (٤) ـ نحن نعتبر الرمز والصور الرمزية من صور الفكر ، لانها صور تعبير عن التفكير والشعور بقوالب حسية مجنحة ، وقد فصلنا القول في ذلك في مناسبات سابقة ، وفي كتابنا المذكور ، ومقالات اخرى .. (٥) ـ لا بد من الاعتراف ان « الرمزية » التي نصادفها اليوم في الشعر الحر عاشت على الرمزية السابقة عليها ، وانها استفادت منها في اتجاه التجربة الانسانية والحضارية .. وليس ثمة فجوة في نظرنا بين النوعين من الرمزية ، رغم تميز أحداهما عن الاخرى بالخصائص والصفات ، على حد زعم البعض .. (٦) ـ سبق التقرير في نص المقال ان « التلميح » يقوم بذكر حادثة او قصة اشارة او تفصيلا ، لنقل بعبارة اخرى ، ان عنصر السرد اساسي في تضمين التلميح .. (٧) ـ وقد نشر خليل خوري معظمها في مجلة المعرفة الدمشقية ، وسبق ان استشهدنا بأمثلة مختلفة من تضميناتها التي للاستعانة ، او التي للتلميح .. (٨) ـ قيام هذه التضمينات متات من الاشارة الى احداث قامت بها هذه الشخصية التاريخية ، من كفاح من أجل الخبز ، او معاركة للزمان ، او مواجهة للواقع ، والجوع، والتشرد .. الا ان اصطناعها في اسلوب نفسي استبطاني ، تتجاوب فيه اصداء بوح الشاعر عن طموحه الثوري جعلها رمزية نفسية أنسانية ، وقد أحالها هذا الاصطناع في معظمها الى تضمينات رمزية ، وأحال « نادر الاسود » الى رمز حضاري ..

بعد الحياة

اذا يـا حبيبي طوتنا الليالي
وعدنا الى مـا وراء الغيوب
وولت رؤانـا وغاض الحنين
وامست خطانا صدى في الدروب
وامحل روض الهوى والشباب
واقفر مـن عابقات الطيوب
ستذكر قصتنـا الكائنات
كما تذكر الشمس وعد الغروب

السنـا نعيش أناشيد قلب
تسرب عبر شعاب الوجود
فتفرق موجاتها في الاثير
وتحيا برغم انين القيود
ويهفو اليها ضمير الانام
وان نحن قد غيبتنا اللحود
سابقى واياك يـا ملهمي
على شفة الكون لحن الخلود

غـدا ان مضينا وعاد الضياء
يشيد بحب سخي العطاء
ستعلم ان هـواك حبيبي
سيبقى بشعري رغم الفناء

دمشق
سلافة العامري

لم تترك الرياح من (ثمود)
في الواد من أثر ..

ان سياق الاسلوب جعل (ثمود) هنا بالاحرى ، والدالة على الظلم والطغيان رمزا ، حمله الشاعر تضمينا سرديا هو التعفية على آثار الظالمين ..

ومثل ذلك قول أدونيس في نادر الاسود ، وهو احد ابطال الثورة التي عرفت بثورة الزنوج أيام بني العباس :

ونادر الاسود
يقرأ باسم الله والشقاء
أسطورة الخبز وشعر الماء ..

ثم يقول فيه :

ونادر الاسود
تحمله الاشجار
وكل غصن قبضة وسيف
نضج قبل الصيف
ينضج بعد الصيف ..

ثم يقول فيه :

ونادر الاسود
هاجر كي يرجع في تشرين
في اول الامطار ..

ثم يقول فيه :

ونادر الاسود
كان الصدى وكان
يجلس بين القمر الجائع
والبستان

يكتشف الظل يغطي جوعه وكان
كالدهر فلاحا من الفرات
يخيط جرح الماء
يمشي وتمشي خلفه السماء ..

هذه المقاطع الشعرية في نادر الاسود من قصيدة طويلة متداخلة المشاهد ، والاصوات ، يتعاورها في الاساس حديث الشاعر عن نفسه وطموحه الثوري .. التضمينات موجودة (٨) حول هذه الشخصية التاريخية المقصودة لذاتها ، وبذاتها ، ولكن الاوصاف فيها معظمها صارت الى اوصاف رمزية ، اسقط الشاعر ادونيس فيها وجداناته ، فأحال بذلك اسم العلم نادر الاسود الى رمز للثورة والكد فيها ..

والقاعدة البلاغية في استعمال اسماء الاعلام صريحة ، لا لبس فيها ، أمس واليوم ، وهي أن استعمال اسماء الاعلام ، على اختلافها يظل بيانا عاديا ما لم يجنح الشاعر فيه الى الرمز ، وذلك بتحميلها المعاني والوجدانات والصفات النفسية والانسانية ، او الى التلميح والتضمين ، وذلك باصطناع الشاعر السرد بشكل موجز ، او مفصل ، فيذكر الحادثة، او القصة المقصودة، والمعنية ، او يشير اليهما بتركيب نحوي يفيد الحدث ، انقطاعه ، او استمراره .. وتضمين التلميح ، او التضمين السردي بعضه عادي ، وبعضه رمزي ..

وفي العدد القادم سنتحدث في بلاغة الاضافة الى اسماء الاعلام ، وبلاغة التضمين في استعمال الافعال التي تلخص سردا ، وتدل على حادثة ، او قصة ..

دمشق
عدنان بن ذريل

— خذوه معكما ، سيكون عاقلا .

اقترحت الجدة ، وهي في فراشها ، تجهش بالعطاس فترتعش ذقنها عائدة للمخدة . تراجع القهقرى ، ولاحت له امه ، كانت واقفة في باب الغرفة ، اطال قامتها كعب حذائها العالي واصبح وجهها مجموعة من الحلوى :

— الاطفال يربكون السينما ، لا ادري ما سوف يفعل .

علقت منهمكة بالتهيؤ ، قاطعة الممر بخطوات واسعة ، فلحقها غير آبه :

— وهل اغير ملابسي ؟

فاجأها وهي تخطر :

— اتهيأ اذن ؟

اصر « ليث » ان يعلم نيتها ، وكانت صامتة ، وشعر انها تريد ان تتملص ، مبعدة صفحة وجهها اليمنى بقدر يوحي بالكدر :

— لن اتحرك ، سأجلس هكذا .

قال ممثلا حركة الهدوء المرتقبة ، منفعلا وحارا :

— وما الذي البسه »!

فأجابت اخيرا وبضجر متطاول :

— استذهب حقيقة ؟

— هذه المرة فقط ، ماما ، اريد ان اراها .

نسي جدته المتوعكة بالزكام ، ووالديه المضطرين لاخذه ، متصورا امر ذهابه للسينما تمنيا اصبح ، بشكل من الاشكال ، لازما . وكأن والدته انتبهت في اخر لحظة كي تتنازل بغضب :

— اغسل وجهك ويديك وسوف نرى .

وبضجيج الفائزين ، تحدر من الدرج مارا بأخته الصغيرة « دعد » مثيرا زوبعة في وجهها المتسائل المستدير :

— استذهب للسينما ؟!

— اي ، اي .

قالها مطشرا الماء حوله ، داعكا قطعة من الصابون ، لم يعد يراها لاوية الانف بالحسد ، متسلقة الدرج ، حرونا عند باب غرفة امها لتتعالى بالنشيج .

كان « ليث » متفوقا عليها ، فعمره ست سنوات ، بينما لا زالت «دعد» تخطو في الرابعة ، وفي هذه السنة بالذات ، ادخل « ليث » المدرسة فبكته واستبكته ، لولا ان الوالد اجبره ، فذهب مكرها ، وحين عاد ظهرا بدا متصبرا. لم يجزع لمفارقتها في اليوم التالي ولم يشاركها الهم ، ومر اليوم الثالث والرابع على فراقهما حتى تعودا ، وبات الرحيل الى المدرسة امرا مقبولا ومسلما به لدى الطرفين معا ، بل لقد افاض ليث ، حين العودة للبيت ، في الحديث عن اصدقاء لم ترهم واخبار لم تسمع



بقلم سميرة المانع

بها ، مبالغا في حفظ الدفاتر والاقلام ، باريا حوافيها ، مهندسا غلافاتها ، مشغولا عنها بالغريب والجديد ، لقد تعلمت منه دعد اناشيد كثيرة تخاف ان تنشدها امامه ، فهو لا بد واجد خطأ في حفظها ، ولذا فقد اسعدت احيانا في اغنية « الام التي تحبها » و « الوطن الذي يفدى بالروح » و « السمكة » و « الارنب في المغارة » حين يخلو لها الجو ويصفو البيت من مشاغبات ليث اللئيم ،



لتعتلي كرسيا ، وباعلى ما يمكن من الاصوات عندها ، تغني فوقه مرتاحة ، خاتمة نشيدها بالتصفيق ، ومع هذه اللذائذ في غيابه ، ظلت مخلصة له ، تنتظره بشوق ، عند رجوعه في المساء ، حاملا حقيبته ، مهرولا للوصول الى الدار . فتراه مهابا ، لا يجاري ، مملوءا بالانباء ، يكون عجولا ، لا يرد لها فرحة اللقاء به ، ولا يبتسم ابتسامتها ذات الحبور . وفي ايام العطل ، وحين يعم السلام بين الاثنين تستغل دعد الفرصة لتقوم بتمثيل دور الام له ، تنيمه على ساقيها المدورين مرنمة له تنويمة سمعتها من امها في يوم قريب ، كان يرضخ لها طائعا لتمثيل دور طفلها المدلل او لعبتها الغالية الصبوح متطعما حلوياتها الشهية برحابة صدر وسعادة لن يشعر بها ما لم تكن هي امه مصغره اسمه زيادة في التصفير ، حتى يشبع فيملها كارها ، متحفزا بالقيام ، متضايقا من الدلال الكثير ، لتعود دعد ، مرة اخرى ، الطفلة البكاءة الغيور ، كل هذا ولا ان يذهب ليث للسينما ويتركها وحدها مع جدتها المريضة الملول ، لقد استساغت ذهابه للمدرسة صباحا ، وعلى مضض ، اما أن يأخذه والداها الى السينما مساء فهذا فوق ما تتصور واكثر مما تستطيع . امطرت عواصفها وارادت ان تمزق شرائطها او ان تتمرغ على الارض ، تريد النجدة ، متذكرة في الوقت نفسه ، جدتها النائمة في الفراش ، ووجهها القديم ، متصورة ما ستبعثه السينما من الضحك واللعب المجنون . لم يفد اقناع امها لها من ان سوف تأخذها معها في المرة القادمة ، ولم تفرح باللعبة التي وعدتها بها ، كانت تريد شيئا حاسما ، اللحظة ، وكان ليث يتطلع نحوها ، مهموما ، قلقا ، خائفا على مصيره ، فرب راي من امه ،

الاديب

احمل عصاك فما المقام بطيب … وارحل ، بلاد الله واسعة المدى
تلك المدينة لا مكان بارضها … لك مـا حبيت مجانبا ومفردا
مـا دام فيها مبغضون ذميمة … أفعالهم ، يرجون كيـدك مقصدا
أمـا بلاد الله ترعى غرسها … وتزيد بعد الارتحال بهـا هدى
حسدوا الاديب بما يعاني مرهقا … بتفاعل الاحساس ، حين تجردا
وسعوا وراء الجهل في حرمانهم … سعي الفرير بدربه نحو الصدى
ما كان مثل الجهل وهو مناهض … للعلم يضمر في الصميم له العدى

الكوت ـ العراق — كاظم محمد حسين

ينقطع فيه توهجه ، منتظرا ببدلته الزرقـاء الجديـدة ، متصففا بالتمشيط .

تنفس الجميع الصعداء ، حين صر الباب ودخل الوالد وبيـده سلسلة مفاتيح ، مشدوها لما يجري عندهم واوشك صوت الصراخ يصل الطريق ، لقد ربحت دعد ورقتها ، وكان الوالد يتضايق من رؤية اطفاله باكين وهم واقفـون متشنجون ، استسهل ذهابها معهم ، فلا ضير ، المكان في السينما واسع ، يسـع الجميع ، قال ذلك ضاحكا راجيا ان تكف الان فلم يبق وقت لديهم طويل ، كما لم يبق متسع لاحتجاج أمها التي رأت في اخذها الازعاج الجم ، واخفت الجدة وجههـا تدريجيا تحت اللحاف ، مترقبـة منصتة ، مغتبطة للنـوم الـذي ستسبح به وبالهدوء الوفير .

★

في المقعد الاخير بالسيارة وقفت دعد قربه ، ماسكة الشباك المطل على الشارع وفيه المصابيح . كانت دكاكين كثيرة مفتوحة تعلق هاماتها أصناف النيون الخلابة فتتراقص عيونها مستعجلة وتهتز الارصفـة كالتماسيح . رأيا الحديقة العامـة بالليل مسورة بأشجار سود وعبـرا مقاهي ومخازن وسيارات واناسـا يتقاربون ويتباعدون . كان ليث مدهوشا كما لم تقل دعد عنه دهشة وسيارتهم تخترق الشارع الجديد. توجسا السينما وهما بالقرب منها يتشابك فيها الضجيج . نـزلا مـن السيارة مخفورين مارين مـن بـين الـناس المتضايقين والمتسامحين . كان المكان عيدا واصوات الباعـة تنغم الجوز واللوز في الطريـق . لم يعـد ليث متذكرا شخير جدتـه العجوز ولا قاطرته المفككة والبرد الذي يحسه في فراشه ساعة ان يدخل فيه ، كـان طائرا وسابحا في آن واحد ، امارات السينمـا امامه وخلفه ، رسوم خضر وصفر وبنفسجية ، ليأتي الفارس الابيض فينقذ الاميرة ذات الشعر الطويـل يرقص الجميع ، ويتعالى الهتـاف وتوزع الحلوى بالمجان . كانـت السينما تعني اشياء كثيرة ، مكبرة ومجهرية ، متناقضة وجبارة .

ـ اتريدان شيئا ؟
تساءل الوالد !

ـ نعم نريد .

وشربا عصيرا ، وعلـكا لبانا ، وقشرا فستقا دخلت قشوره المقاعد، خرسا حين عم الظلام القاعـة فتساءلا بصوت خفيض :

ـ انتهت ؟!

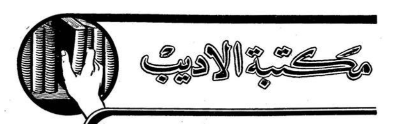
ـ تبتدىء !

اجابت والدتهما مطمئنة والشاشة تزداد وعياحتى تنير،موسيقى لليقظة وموسيقى تنيم ، تماسك ليـث ، وودت دعد لو تذهب للجلوس في حضن امها ، خائفة مما قد يحدث ، والصمت ملأ الرؤوس . كتابات في الخارج واشخاص ما كانوا متوقعين امرأة تلبس جوربا ، واخر لا ينتظر، الجورب يهمل ، مطرب ، ويهـرب ذو المعطف ، يبلع اسبرين ، المرأة تلتجىء ، الجرس يقرع ضيـف بلاكم ، يرتعش البيت ، بكاء ! بكاء ، انين .. حديث .. اراد ليث النور ود لو يحادث د عد ، متى ينتهون ؟ قالها مصعرا خده ، وهي تلتفت على امها وفي نفسها الحاجة التي لا تتأخر عنها ولا تتقدم ، فهمت والدتها الاشارة فأسرعت تلعـن الاطفال وما يفعلون .. خرجتا من الصالة تتهجسان الطريق وقـد فات الوالدة جزء حساس من الفيلم وليث يبلبص ووالده مشغـول . الكراسي صامتة والفيلم مشـوق والبطل مصيره أليم .

★

كان ليث مفطفطا في نومـه ، فاتحا فاه كمن يريد ان يستغيث ! ولوت دعد رقبتها على ذراع كرسي القاعة رائحة في ظلام سادر ! بـذل والداهما جهـدا كي يوصلاهما للسيارة منهارين متكدسين .. لم يستيقظا حتى بعـد ان اوصلا البيت وادخلا على الاذرع محمولين ووضعا في الفراش بصمت وتغطيا دون ان يشعرا بشيء يذكر .

لندن — سميرة المانع



احلام في النهار

قصص اسطوري عربي تأليف الدكتور ميشال سليمان ـ ١٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ طبع في بيروت

من الادباء والكتاب ومن الشعراء والخطباء من يظهر اول ظهوره كهلال الشك الذي وصفه ابن الفارض ، ببيت اوفر على قارئاتي وقرائي وأوفر على نفسي ذكره ثم شرحه .

وهلال الشك كما يعرف الصائمون هو الذي يكاد خيائه لا يستبين لحديد البصر في مطالع المساء ، من اواخر شعبان او اواخر رمضان لثبوت الصوم والعيد . واني أجد ذلك الفريق من الادباء في هذا الضرب منهم الذي يعيش طويلا منذ ظهوره ، مستترا ، لانه لم يكن مبينا في مطالعه وساطعا في أنواره ، فاذا كتب له وجود فتكشف عن قدرة وعن موهبة استقرت حاله في دنيا الفكر والادب .

ومن الادباء وأهل الفكر ناس يطلعون بغتة كالشمس الوهاجة ، وسرعان ما يعلو وجودهم حتى يحتلوا كبد السماء ، ويملأوا الدنيا باشعة ثبوتهم وصوت مواهبهم . كهؤلاء ، ظهر الصديق الشاعر الكبير الدكتور ميشال سليمان .

لم أكن أعرف شخصه ، وقد عرفت طلوعه ، حتى أخذني صديق قديم مستديم عشية من عشايا انطلياس . وانطلياس أجدها مضمخة بالغناء المراح ، والشعر الفواح . ففيروز تنشر من جو انطلياس لحونها الابدية التي تذهب الى ارجاء الدنيا . والشاعر الكبير « قبلان مكرزل » يعيش في سوانح من فكره وشعره متكئا على دواوينه الشعرية الروائع وامامه مطارحان للادب في وحدته وعزلته : ابنه الاديب الاذاعي سليم ، وأخوه الكريم .

أفاجد سوى هؤلاء في انطلياس ، لعلي واجد في أرضها وسمائها الكثير .

في تلك العشية أخذني صديق العمر الكاتب العربي الكبير جان كميد الى ندوة ليلية ادبية في معهد علمي يديره آباء أجلاء . وكانت الندوة منعقدة لنقاش ديوان « رثاء الخيول الهرمة » للشاعر الدكتور ميشال سليمان ، ومنذ جلست الى هذه الندوة ، وأبى خلق ذويها الا أن أجلس في المقدمة ، أخذت أشعر بانني لست في ندوة ، وانما أنا في محكمة ، قطب حكامها بوجوههم ، وزووا ما بين اعينهم ، وترصدوا بالذي يحكمون عليه ، وهو الشاعر كل مزلق (١) وعثار . وتهيج بي الذكرى الحبيبة والمحزنة التي تناط بشقيق روحي وفكري المأسوف على فقدانه الاستاذ الكبير رئيف الخوري عليه رحمات الرحمن . فكان هنالك ، وود ان اشارك اهل الندوة بتناقشهم فكرهم ونقدهم ، فتكلمت وسللت الشاعر من بهرة تعذيبهم ، كما تسل الشعرة من العجين عند حد التعبير الذي جاء به حسان بن ثابت في الدهر القديم .

ذلك أول لقاء لي بالشاعر الموهوب الدكتور سليمان ، وقد اثبت تقديري له ولديوانه ذاك ، بمقالي فيه بمجلة « الرحمة » البيروتية التي يصدرها الصديق الشيخ شفيق ضاهر . واليوم وقد اتحفني بكتابه الجديد « أحلام في النهار » زدع بنفسي الشوق الى الكلام عليه .

انني لست غريبا عن دنيا الاساطير ، وربما كنت أنا بذاتي اسطورة ، ولكني لا أرغب ان اكون حديث خرافة تخاطب بها أم عمرو . فاحلام النهار تثير في خاطري شؤونا علمية بحتة جاء العصر بها « سيغموند فرويد » النمساوي ، أبو التحليل النفسي والتشريح الروحي والفكري بدنيا البشرية الحديثة . انه هو الذي كشف عن جرح الانسانية « الجرح الجنسي » ورد اليه أكثر العلل في وجود الانسان . واحلام النهار عنده هي أحلام اليقظة ، التي يسبح في خضمها الحالم ، فاما أن يبقى عند الشطوط ، او يغرق في تلافيف الامواج .

ان فحوى هذا الكتاب أساطير يعج بعضها في بعض ، وتجتذب الخيال الى دنيا الاولمب ملقية وشاحها الساحر على دنيا العرب في الجاهلية العميقة ، وبعض عهود الاسلام الاخيرة ، كحديث « ناقة صالح » ، « وارم ذات العماد » ، وفيما ترامى من التاريخ على آماد الكلدانيين في « سقوط نمرود » وفي متاهات الصحارى وراء غزال شارد يؤدي (بخرافة) الى وادي الجن .

ومن طبعي في الكتابة عن المؤلفات وآثار الشعر والفكر في مجلتي « الاديب » التي اكتب فيها منذ صدورها ، وأرى باعتزاز الى مراحل البناء الادبي واشادة الفكر اللتين عززتا بهما لبنان أخي صاحب « الاديب » مد الله بعمره واضفى عليه جلابيب الصحة .

أنني أكتب لقارئاتي وقرائي لابعث فيهم الشوق الى تناول الكتب والدواوين والقصص ، لا لاعطل عليهم لذة الاستكشاف فيما يقرؤون . وما أشد ضيق نفسي وتبرمي قبل ان اشاهد رواية السينما بذاك الذي يزحم خواطري ويقص علي ماجريات الرواية قبل ان اشاهدها . فاية نكهة تبقى منها ؟ . كذلك منهجي في الكلام على الكتب أبعث الشوق الى مائدة الفكر ولا أدلف بضرب من ضروب الطعام لاسد به منافذ الرغبة بشهي الموائد .

فالى الكتاب الجديد للشاعر الكبير الدكتور ميشال سليمان « احلام في النهار » ادعو قارئاتي وقرائي الاعزة ، على ان يتلبثوا قليلا في اكتناه المعنى الشعري لصورة الحسناء التي على الغلاف (٢) وعلى ان يقفوا وقفات الذكر والفكر في مقدمات الفصول وهي منتزعة من القرآن والحديث واقوال المؤرخين .

واذا لزمني النقد ، ولا ينبغي أن أخلي منه مقالي ، قلت كان على المؤلف النابغ ان يجيء بالاسطورة العربية الفواحة بالشعر والحزن ، اسطورة الشعريين « الشعري العبور والشعري الغميصاء » وفيها وله وبكاء وفيها حنين ورنين ، فان فتاتين حسناوين كانتا على أرض الجاهلية ملأتا الدنيا بالجمال والدلال ، قد تعاشقتا ، فثارت بهما غضبات الانس وفزعات الجن فاذا هما تهجران دنيا الارض لتطلعا في عالم السماء كوكبين سابيين ، فتكون احداهما الشعري العبور التي عبرت وبعدت عن رفيقتها ، وباتت الشعرى الغميصاء ـ على البعاد ـ باكية عليها حتى غمصت عيناها فاحمرتا من طول البكاء ..

وأساطير الشاعر سليمان يضفي عليها ابتكاره فيشبه أساطير « هوفمان » التي رقصت على ندائها العبقري راقصة الباليه « موراسيرار » وقد حييتها منذ سنين بشعري في « الاديب » الاغر

---

(١) كان فيها الاستاذ بلند الحيدري والدكتوران شلق والعاصي.

(٢) من وضع الفني المصور « كابا » .

يوم اختلبت عقلي بروايتها « الخف الاحمر » . كذلك يتاح لنا نحن أبناء الحقائق في الادب والفكر ان نخترع الاساطير وان نرويها لنضمخ بعطورها الوجود .

دمشق — زكي المحاسني

•

مفكرون وادباء من خلال آثارهم

تأليف الاستاذ انور الجندي ـ (؟) صفحة ـ منشورات دار الارشاد ببيروت

صدر اخيرا كتاب عن دار الارشاد ببيروت لكاتب يعتبر اليوم في طليعة الذين أرسوا أسس معالم النهضة الادبية بجميع فروعها ، وهو العلامة الاستاذ انور الجندي .

والجندي الاديب والموسوعي والباحث لا يمكن ان تفيه كلمات في اسطر ، اذ انه عاش بعيدا عن الاضواء التي يهفو اليها طالبو الشهرة وناشدوها ، لقد عاش ولا يزال ـ أطال الله عمره ـ يبحث عن الحقيقة في كل ما يكتب ، يدفع بقوت ابنائه لطبع ونشر ما يعتقد انه يسهم في تاريخ فترة ، استنام عنها كثير غيره ، وليحارب به « النظرة الاقليمية الضيقة » التي سادت الدراسات الادبية .

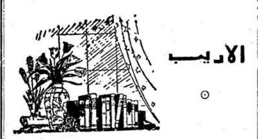
وقد سبق هذا الكتاب عدة كتب من نوعه للمؤلف منها : « اعلام واصحاب أقلام » ، « من اعلام الادب والفن » ، « من اعلام الحرية » ، وهو بهذا لا يقحم قلمه في هذا الموضوع ، موضوع التراجم والاعلام ، بل يدخله واثقا من قلمه ومنهجه الذي يسير عليه ، وبعد فهو صاحب موسوعة بلغت ثمانية عشر مجلدا ، تناولت دراسة وتطور الادب العربي منذ فجر النهضة الحديثة .

وقد تناول في كتابه هذا بالدراسة الكتاب الذين برزوا في مجال دراساتهم في الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الثانية وايامنا هذه ، بالاضافة الى الكتاب « الذين لمعت اسماؤهم قبل هذه الفترة » و « استطاعوا في هذه المرحلة ان يقدموا اعمالا جديدة ، تميزوا بها عن المرحلة السابقة من حياتهم الفكرية » .

لقد أشتملت موسوعته المذكورة والتي اسماها « معالم الادب العربي المعاصر » على الفترة الواقعة بين عام ١٨٧١ تقريبا الى اوائل الحرب العالمية الثانية . وهي بذلك ارخت للادب والفكر العربي واعلامهما الذين بلغوا اربعمائة من اعلام الادب والوطنية والفكر والاجتماع ، اما هذا الكتاب فقد تعدى الفترة التي درستها الموسوعة الى هذه الفترة التي تعتبر اساسا للدراسات الادبية التي تتناول الوجه الجديد للادب بجميع فروعه من شعر ونثر ، والاستاذ الجندي يعتبر هذا الكتاب اول عمل بعد مرحلة الموسوعة ، ولكن ـ في نظري ـ فان هذا الكتاب يعتبر احد مجلدات الموسوعة ، اذ انه من حق الادب والفكر عليها ان لا تقتصر على فترة بعينها ، بل انه من المنطق ان تواصل وتواكب تاريخ الادب والفكر واعلامهما الى اكبر فترة ممكنة ، ولنا كبير الامل ووطيد العزم في ذلك .

والاستاذ يعتمد فيما يعتمد في جميع ما يكتب عن الادب المعاصر واعلامه على مصادر يقسمها الى قسمين : الاول يسميه « المراجع المدفونة » وهي الدوريات والصحف التي صدرت منذ اوائل النهضة الى اليوم ، وهو خبير بهذا النوع من المراجع ، فقد عاش معها في مكتبة القلعة اكثر من ثلاثة اعوام ، مقيما اقامة تامة حتى اضطر معها الى اتخاذ نظارة طبية .

والثاني ما يسميه « المصادر الحية » وهو يعرفها بانها « الرجال



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩ — Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

الذين عاشوا الاحداث او شهدوا من عاشوها » وقد نعرف على كثير منهم واستفاد من صلاتهم الشخصية معه ، فهو قد التقى مع « هلال ناجي ، الشاعر الدبلوماسي ، فهو مرجع خصيب للمؤلفات والمقالات والمراجع » ، كما انه التقى مع محمد علي دبوز في الجزائر ، وعزالدين الامين في السودان الذي يعتبره « مصدرا مهما للدراسة الادبية » ، والتقى مع عمر فروخ في بيروت ، والامير مصطفى الشهابي في الشام ، وغير هؤلاء كثير ، ومن هنا جاءت اهمية ترجماته ودراساته في هذا الكتاب ، وبامكاننا بعد اعتبار الجندي معلما بارزا من معالم ادبنا المعاصر . فقد جمع حصيلة علم وخبرة وادب وفكر كثير من هؤلاء .

ومع تقديرنا الكبير لمثل هذه المراجع والمصادر فان لكل منها عيبه الذي لا يمكن التغاضي عنه .

فالدوريات والصحف ، وما فيها من ادب وفكر قد لا يعبر بعضه تعبيرا صادقا عن وجهة نظر الاديب او المفكر المترجم له ، اذ ان كثيرا من الادباء تدفعه الحاجة الملحة من اصحاب الصحف لملأ فراغها ، الى ان يكتب ، او يدفعه الاعجاب او الخصومة الى ما لا يعتقد به ، ومن هنا جاء قدر لا بأس به من السطحية في ادب الدوريات والصحف ، اذ ان الادب والفكر ليس له مكان الا الكتاب ، ففيه الروية والاناة والنظرة المتمهلة ، التي لا تأخذ الظواهر على عواهنها ، بل تحللها تحليلا دقيقا للخروج بنتيجة صادقة ومحددة منها ، وفي صفحات الكتاب بعد متسع لكل هذا .

ثم ان للصلة الشخصية ، على ما لها في كثير من الاحيان من القدرة على تبيان الدقائق والصغائر المهملة ما ليس لغيرها ، لها هنات كثيرة ، اذ انه كما يقول الجندي نفسه « ان الاعجاب يضع غشاء يحول دون رؤية الحقيقة ، وكذلك الخصومة فهي تحجب الصورة الصحيحة » .

من هنا جاءت الدراسات التي تضمنها الكتاب تميل في كثير منها الى التعريف بالاديب والمفكر ، دون التعرض لهما بالنقد والتمحيص ، فتعطيه ماله من انصاف وحق ، وتحصي عليه ما يقع فيه من هنات وعيوب ، ولا بد ان كثيرا منهم يستحق ذلك .

وليس من شك ان الاستاذ انور الجندي قد اجاد الى درجة كبيرة التعرف الى كثير من الادباء والمفكرين من خلال آثارهم مجتمعة ، فهو يؤمن بأن « كتابا واحدا لا يستطيع ان يعطي صورة كاملة عن الكاتب».

الا انه تمشيا مع منهجه الذي اختطه منذ الصفحة الاولى في كتابه ، والذي يقضي بدراسة الادباء ، الذين برزوا قبل الفترة التي يدرسها ، من خلال اعمالهم التي برزوا بها في هذه الفترة وترك ما دونها ، مع ذلك فقد وقع في عدد من دراساته نقص كبير ، فالاديب تدل عليه آثاره كلها ومجتمعة ، بحيث تكون اطارا واحدا لا يمكن تقسيمه الى اجزاء ، والا لبقيت الصورة ناقصة ، والدراسة غير مستوفية .

حدث مثل ذلك في دراسته للاستاذ الدكتور محمد صبري ، فهو قد عاصر النهضة الادبية مع مطالعها ، وخاض شتى المجالات . فساهم في فن التراجم بعدد من التراجم لها قيمتها ، فهو من اوائل الذين خاضوا هذا الفن واجادوا فيه ، فله : محمود سامي البارودي ، ابو عبادة البحتري ، اسماعيل صبري ، ذو الرمة ، خليل مطران ، امرؤ القيس ، الشوامخ .

كما ساهم في التاريخ وتدوينه فوضع عدة كتب منها : تاريخ الحركة الاستقلالية في ايطاليا ، الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ، تاريخ مصر الحديثة .

ومع ذلك فان المؤلف اقتصر على تناول هذا العلم الكبير من خلال كتابه « الشوقيات المجهولة » ، ومر عابرا بالكثير من مؤلفاته التي ذكرتها والتي لم اذكرها .

ان حياة الاديب كل لا يتجزأ الا بمقدار ما يدل ذلك على تنوع ثقافته وخصبها ، مما يمنحها طابعا خاصا متميزا عن غيرها من حيوات الادباء الآخرين . قد نلمح التباين ، الذي قد يبدو كبيرا ، بين مراحل معينة من حياة اديب ما ، ولكن يجب ان لا ننسى ان الاديب وحدة متماسكة من الفكر والادب .

ان الفترة التي درس استاذنا الكبير ادباءها ومفكريها هي من اهم الفترات التي مرت بها امتنا في تاريخها المعاصر ، ففيها تم التفتح والوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي ، وفيها نبتت اهمية الدور الحضاري الكبير الذي لعبته امتنا في الماضي ، والذي من الممكن ان تلعبه في مستقبل الايام ، فتاريخ هذه الفترة ادبيا وفكريا وتاريخيا وعلميا يعتبر خدمة جليلة نطالب بها مفكرينا وادباءنا وعلماءنا ومؤرخينا ، فمزيدا من مثل هذا الكتاب القيم ، لالقاء الاضواء الكاشفة على هذه المرحلة الدقيقة ، وارجو ان يكون هذا الكتاب فاتحة طريق لا يزال يعتبر طويلا وشاقا ، ونحن اذ نشكر الجندي العلامة على هذا الجهد ، لنرجو ان يتبع كتابه هذا رتل كبير يثري مكتبتنا ، ويساهم في المسيرة المباركة لامتنا الماجدة .

الدمام **محمد قنديل**

•

الكـــــهف

رواية مصرية ـ تاليف محمد جلال ـ ٢٠١ صفحة ـ الناشر دار الهنا بالقاهرة

اختار الاستاذ محمد جلال لروايته الجديدة « الكهف » فترة زمنية حافلة بالاحداث مليئة بالتناقضات مصطبغة بشتى الاتجاهات السياسية والفكرية « وهي فترة خواتيم الاربعينات من هذا القرن » .

والواقع انها تعد ، من هذه الناحية ، وثيقة تاريخية هامة تؤرخ لهذه المرحلة ، وخاصة والكاتب قد عاصر الاحداث ، واكتوى بنارها ، بل وشارك احيانا في صنعها ، مما يجعلنا نرى انها تجربة ذاتية للمؤلف فلا غرو ان خرجت روايته نابضة بالصدق مفعمة بالحيوية .

والرواية تعرض لحياة طلبة الجامعة وكفاحهم السياسي في هذه المرحلة بكل ما فيها من حماس الشباب وثورته وتطلعه نحو حياة افضل فاذا كانت السياسة في هذا الوقت خليطا من التناقضات بحيث تضيع الرؤية الصحيحة وسط تزاحم الاحداث واصطخابها فقد جاءت الصورة التي رسمها الاستاذ المؤلف منطبقة تماما على الواقع السياسي في هذه الايام .

والرواية في حقيقة الامر عبارة عن مجموعة من القصص تصور كل واحدة منها حياة احد ابطال هذه الرواية مع وجود هذا الخط الدقيق الذي يربط بين هذه المجموعة من القصص ويجعل منها في النهاية هذه الرواية التي تحت ايدينا الان .

فنحن نطالع مثلا قصة « احسان » الصحفي المأجور ، وعميل القصر بعلاقاته النفعية « باشجان » من جهة ، « الفلبان » من جهة اخرى ثم « الخشن » في النهاية واستعداده التام لبيع نفسه حتى للشيطان في سبيل الحصول على الترقيات وصنع حياة مترفة على حساب بيع الشباب الوطني للقصر ان الكاتب لصور هذه الحياة التي يحياها « احسان » بما يسودها من انتهازية تمكنه من بلوغ مآربه عن طريق اتصالاته الكثيرة المشبوهة .

كما تطالعنا ايضا في هذه الرواية قصة « اشجان » هذه الفتاة

القروية التي هبطت الى القاهرة لتعمل خادمة والتي سرعان ما جرفتها حياة المدينة بعد اتصالها باحسان الذي مكنها من الوصول الى الدراسة الجامعية لتجعل منها عميلة له تنقل اليه اسرار الطلبة بينما هو يمثل عليها دور العاشق الولهان والتي تفيق في النهاية وتتنبه الى الفخ الذي نصبه لها « احسان » فتثور عليه وتتجه بعواطفها نحو « ضياء » زعيم الطلبة ، واحد الوجوه المشرقة وسط هذا الظلام فتقرر في النهاية العودة الى القرية حيث الهواء النقي الذي حرمت منه وسط زحام المدينة ، وحياتها البراقة الخانقة .

كما تطالع ايضا قصة « الخشن » هذا السياسي الواعي ، الذي استطاع ان يلعب (بانتهازية) دور المكافح الثوري وهو ابعد ما يكون عن ذلك والذي سرعان ما يغير جلده ويكشف عن حقيقته كاحد العملاء المأجورين فيرتمي تحت اقدام « احسان » ليمكنه من الوصول الى قلب « اشجان » .

اما الصورة التي ابدع الاستاذ ـ بحق ـ رسمها في هذه الرواية ، فهي صورة « الفلبان » هذا المثقف البائس الذي لم تعترف هذه الحياة الاجتماعية الزائفة بعبقريته ، فقذفت فيه برغم كل ثقافته ووفرة اطلاعه الى احد المساجد لتجعل منه خادما ومؤذنا وخطيبا نظير قروش معدودات ينفق منها على زوجه واطفاله والذي يضطر تحت ضغط الحاجة الى بيع قلمه « لاحسان » الذي ينقده بضع جنيهات في مقابل ما يكتبه له من مقالات بليغة والذي تمكن بفضل توصية « احسان » من العمل كموظف بوزارة الاوقاف متنقلا بذلك الى زمرة (الافندية) .

ومن الشخصيات التي وفق الكاتب كذلك في تصويرها شخصية « دعبس » المطرب القروي الذي غادر قريته ليجرب حظه في القاهرة والذي تمكنه اخته « اشجان » عن طريق صديقها « احسان » من الشهرة وبلوغ (ميكروفون) الاذاعة والذي سرعان ما يترك فنه الريفي الاصيل ليغني الاغنيات الراقصة والخفيفة فتتهافت عليه سيدات الطبقة الراقية ، ويتبارين فيما بينهن على الفوز به كعشيق .

وفي الوجه المقابل يرسم الاستاذ جلال عدة صور صادقة للشباب الثوري في هذه المرحلة كشخصية « صابر » الشاب الوطني المكافح الذي يتزعم الطلبة عن جدارة ، والذي يغمر حبا دفينا لاشجان . وكذلك الشاب المكافح « منير عبد اللطيف » هذا الصحفي الشريف الذي يشرع في تاليف كتاب اسود يفضح مساوىء عهد ما قبل الثورة، والذي يقبض عليه بعد ان ابلغ عنه « احسان » الذي عرف عن طريق « اشجان » فكرة اصداره للكتاب الاسود .. ان هذا الشاب الباسل يرفض الهرب مفضلا البقاء ومواجهة زباينة هذا العهد .. كما يحسن المؤلف رسم صورة زوجة هذا البطل التي تضحي بحياتها الارستقراطية لتعيش حياة بسيطة الى جانب هذا الكاتب الحر .

اما الشاب « فاضل » صانع المتفجرات فقد وفق الكاتب تماما في تصوير مشاعره عقب نجاح قنابله في حد قوات البوليس وتحويل اجساد ورجال الشرطة الى اشلاء مبعثرة انه يشير انه قد ارتكب جريمة في حق هؤلاء الرجال الابرياء من جنود الشرطة الذي مزق اجسادهم بقنابله ، بينما هم ينفذون اوامر رؤسائهم حين يصوبون بنادقهم الى صدور الطلبة ، ولو كان الامر في ايديهم لصوبوها الى صدور هؤلاء الرؤساء .

وهكذا استطاع الكاتب من خلال هذه الشخصيات المرسومة بدقة ان يعرض لنا شريحة كاملة من المجتمع المصري فيما قبل الثورة ، ممثلة في هذه المجموعة من شباب الجامعة ، ومن يتصل بهم من افراد هذا المجتمع .

والواقع ان اول ما يلفت النظر في هذه الرواية ، بعد توفيق الكاتب في اختيار موضوعها والفترة الزمنية التي تعالجها هو دقة الكاتب في رسم الشخصيات فأبطال الرواية مرسومون بمهارة بحيث استطاع الاستاذ « محمد جلال » بحق ان يجعل منهم ادمين احياء يعيشون ، ويتنفسون ، ونتبين ملامحهم بدقة من خلال صفحات هذا الكتاب وربما كان توفيق الكاتب في هذا الصدد يرجع الى انه اخذهم من الواقع ، فالشخصيات ـ كما يبدو ـ شخصيات حقيقية عاشت في المجتمع سنوات ما قبل الثورة واتصل بها المؤلف وعرف دقائق مشاعرها واحاسيسها فاحسن تصويرها ولا غرو فالذين عاشوا وتلقوا العلم في الجامعة في هذه المرحلة يستطيعون ـ بسهولة ـ ان يعطوا هذه الشخصيات اسماءها الحقيقية .

وفي الحقيقة فان كل شخصية من هذه الشخصيات لتستحق دراسة خاصة بكل ما تجيش به اعماقها من مشاعر واحاسيس وبكل ما يصطخب في عقولها من اراء وافكار لقد استطاع الاستاذ « جلال » ان ينتقي مجموعة من النماذج ممثلا هذا الجيل اصدق تمثيل بكل ما فيه من نقاوة ووطنية وشهامة هي الجوهر ، وبكل ما فيه من خسة ودناءة وخيانة هي الامر العارض وكم كان الاستاذ المؤلف موفقا حين جعل النماذج الطيبة اكثر عددا في روايته من النماذج السيئة، فالطيبة والوطنية والنقاء هي الاصل في شعبنا اما الدناءة والخيانة والخسة فهي اشياء عارضة اذا احسنا الظن بهذا الشعب الكريم .

وشخصيات الاستاذ جلال بشر من لحم ودم ، لهم لحظات ضعفهم وشرهم فهم ليسوا اقوياء دائما ولا اخيار في كل الاحيان وهذه هي الطبيعة البشرية الحقة بكل ما تنطوي عليه من غرائب ومفارقات .

ويرتفع الاستاذ المؤلف الى زروة عالية في بعض فصول هذه الرواية الجيدة ، ومن اللفتات الطيبة التي وفق الكاتب في تصويرها اللقطة التي اعطى فيها « احسان » ورقة من فئة الخمسة جنيهات لابن (الفلبان) الصغير ان الطفل قد ترك الورقة على الارض وانطلق هاربا الى خارج الشقة انه تعبير جيد عن الذعر والمفاجأة اللذين صدم بهما الطفل وهو يعطي هذا المبلغ الكبير دفعة واحدة ومن جهة اخرى تعبير عن فرار الجيل الجديد ونجاته من مثل هذا الاسلوب في التعامل .

ويمتاز الحوار في كثير من جوانب هذا العمل بالذكاء والالمعية ومن ذلك الحوار الذي اداره الاستاذ جلال بين « احسان» و «الخشن» حين تقابلا في النهاية ، ان الحوار هنا يدور بين رجلين ضالعين في الخيانة .. ان العبارات القصيرة الحادة كانت اشبه بطلقات الرصاص المتبادلة بين عدوين لدودين ، لا بين رجلين يجلسان امام بعضهما فاتحين صفحة من الصداقة يعلم الله انها لغير وجهه .

وفي النهاية فان لي عددا من الملاحظات حول هذا العمل هناك مثلا ما يتعلق باللغة وصحتها ففي العمل كثير من الاخطاء اللغوية والنحوية من ذلك قوله (واسرع الى زجاجة عطر وسكب منها على يديه وغسلها) والصحيح ان يقول (وغسلهما) ومن ذلك ايضا قوله (يبدو ان الجهد الذي بذلتيه في الانتخابات قد اثر على اعصابك) والصحيح (بذلته) بدون ياء .. وكذلك قوله (الملابس الشفافة الداخلية) والانسب ان يقول (الملابس الداخلية الشفافة) ..

وهناك بعض المآخذ تتعلق بالموضوع فالتطور الاجتماعي لاشجان ، وانتقالها من مجرد خادمة ريفية اسمها « خضرة » الى فتاة جامعية عصرية اسمها « اشجان » تذهب الى الجامعة وهي ترتدي البنطلون وتنجح في انتخابات الطلبة وتمارس هذه الحياة المتحررة .. اقول ان مثل هذا التطور الغريب امر لا يمكن تصوره .. ومن الامور الغريبة حقا في هذا العمل استدعاء العمدة والمامور لدعبس وتعنيفهما له بسبب غنائه الذي « يعطل الفلاحين عن الذهاب الى حقولهم » وكيف ان الخاصة الملكية اشتكت من ذلك وانتهى الامر بتحطيم الناي الذي اشاع الفتنة في البلاد .

ومن الاشياء التي كنت اتمنى ان ينزه الاستاذ جلال قلمه عنهـا استخدام الجنس استعمالا مباشرا دون ضرورة فنية ــ كتعمد اشجان وهي في غرفة صابر كشف ساقيها وكذلك الجزء الذي يصور فيـه الكاتب ذهاب دعبس الى شقة المرأة التي افتتن بـه منذ اول حفلة غنى فيها ومحاولاتها لاثارته عن طريق تعريتها لساقيها .

اما من ناحية الاسلوب فالاستاذ جلال وقد وفق الى مثل هـذا الموضوع الثري كان عليه ان يجهد نفسه في اختيار لغة أبعد عن هـذا السرد المباشر الذي نلاحظه في معظم جوانب هذا العمل ، لغـة تتسم بالشاعرية والشفافية والقدرة على الايحاء والتلميح . ولا يسعني في النهاية الا ان اهنىء الاستاذ « محمد جلال » على روايته .

امارة الفجيرة **عبد المنعم عواد يوسف**

•

البئر في حياة العرب قديما وحديثا

تاليف عبد القادر عياش ــ ٨٨ صفحة حجم كبير ــ طبع فـي ديـر الزور بسورية

قد لا يخطر في بال ساكن المناطق الساحلية ، والجبال المشجرة الكثيرة الامطار شيء اسمه البئر ، فالسماء تجـود بامطارها شتاء وخريفـا وربيعا ، والينابيع الغزيرة تروي الارض بسخـاء صيفا ، فتمـرع البساتين ، وتخصب الحقول ، وتضفي على المكان لونا بهيجا زاهيا ، اما سكان المناطق الداخلية ، والبدو الذين يجوبون الصحارى الرملية بحثا عن الكلأ ، وطلبا للماء النادر العزيز ، فالبئر تلعب فـي حياتهم دورا كبيرا ، لانها مصدر ارواثهم ، وارواء مواشيهم العطشى .. ان الشيء ياخذ اهميته كلما مست الحاجة اليه ، وقل وجوده ... ليس لكوب الماء اهمية تذكر عندما تكون جالسا على رأس نبع صاف غزير ، ولكن له كل الاهمية عندما تنفرد فـي الصحراء المجدبـة الجافة ، المحرقـة .

من هنا نبعت مكانة البئر في حياة العرب الذين كانـوا يفتقدون الماء في فيافيهم الواسعة المضيعة ، وقد ظهر اثر ذلك فـي ادبهم ، فدعوا لقبور موتاهم بالسقيا كقول حفص بن الاخيف :

لا يبعـدن ربيعـة بـن مكـدم وسقـى الغوادي قبـره بذنـوب

وقول القلاخ بن حزن المنقري :

سقى جدثا وارى اريب بن عسعس من العين غيث يسبق الرعد وابله
ملث اذا القى بارض بقاعـه تغـص سهل الارض منه مسايله

وقول عكرشة العبسي :

سقى الله اجداثا ورائي تركتها بحاضر قنسرين من سبل القطر

وقد ظل هذا التقليد سائدا في الشعر العربي الى زمن متاخر ، رغم ان العرب بدلوا حياة بحياة ، وارضا بارض ، ومناخا بمناخ !

الا ان البئر آخذة بالاضمحلال يوما بعد يوم ، لان الحياة الحديثة اوصلت المياه بشكل منظم الى كل بيت ، فبدل « الامتياح » الذي كان يستغرق ساعات طويلة ، ويكلف مجهودا كبيـرا ، دون مردود يذكر ، صارت « الحنفية » تدفق المياه بلا حساب ، جزافا ...

لكن الاستاذ عبد القادر عياش ، صاحب المؤلفـات الفولكلورية العديدة ، والدراسات الشعبية الوفيرة التي تتصدر الصفحات الاولى من مجلته « صوت الفرات » خشي ان تلتهم الحياة الحديثة هـذه العادات والتقاليد ، فراح يدونها في سلسلة تحقيقات بلغت الاحـد عشر ، مصدرها وادي الفرات ، ومنطقة دير الزور حيث يعيش المؤلف ، متخذا من بيته متحفا للعاديات الأثرية والدراسات التاريخية والشعبية ، وقد دفعه الحرص عليها ، والخوف من ضياعها ، الى تدوينها وطبعها على نفقته الخاصة ، لا ينتظر من وراء ذلك كبير نفع ، او عظيم ربح .. فكيف لا يكبر المرء مجهود انسان فرد ، يحقق اهدافه رغـم الامكانات النزرة ، ويتخطى المثبطات ، ويعاند المحو والالفـاء والابطال ؟ كيف لا يجل الدأب ، وعمل الفكر واليدين في كتابة وطباعة تاريخ وعادات وتقاليد يوشك أن يعفي عليها الزمن ؟ لو هيئت لهـذا الباحث المنقب امكانات طباعية ومادية ، لاغنى المكتبة العربية بتاليف لا تحصى .

لنعد بعد هذه الجولة الى الدراسة التي خصها بالبئر ، وعـدد صفحاتها ثمان وثمانين صفحة ، تحدث فيها عن كل المجالات التي يمكن ان يرد فيها اسم البئر ، فذكر تعريفها اولا ، ثم اشكالها ، واسماءها وطريقة حفرها ، وانتقل بعد ذلك الى البئر في دير الزور ، فآبـار البادية ، وعرج على النزاع الذي يحدث حولها ، لان كل جماعة تود ان تكون السباقة اليها ، فتنشب المشاجرات ، ويفتك السكان ببعضهم ولا يقتصر النزاع على الورود ، بل يتعدى ذلك الى ملكية البئر .

ثم يتحدث المؤلف عن المآخذ على الآبار ، ووسائـل استخراج المياه ، وعن البئر في التقاليد ، فمن هذه التقاليد ان ابن السبيل احق بماء البئر من المقيم عليها ، واذا ورد شخص مع اغنامه على بئـر خطأ ، دون ان يعلم ان البئر تعود الى خصومه ، فان علـى صاحب البئر ان يعاونه على سقاية غنمه في الحال قبل اغنامه هو .

وهناك بعض الكوارث الطبيعية التي تنـزل بالآبار ، كالجفاف والتسمم ، وانهيار الجوانب ، اما الكوارث البشرية فهي الردم المفتعل بقصد الايذاء والانتقام ، وسقوط المواشي او الاشخاص ، فيؤدي تفسخ الجثث الى فساد المياه ، وقد تنسد عيون البئر في القعر ، بمـا يسقط فيها من الجرار والقش ، لذا تجب العناية فيها باستمرار .

ولعله من الطريف ان يعرف القاريء شيئـا عـن الطرق التـي يستخدمها البدو في الاهتداء الى البئر في البادية ، ومعظمها يعتمـد على الاستدلال ، واتباع مسارب الاغنام ، حتى يصل الـى البئر ، فيشرب ، واذا لم يكن معه دلو ، او حبل يدلي به ، استخدم المحارم وارسان الخيل ، وقد يلجأ الى تمزيق عباءته فصولا فصولا ، ثم عقـد اطرافها حتى تصل الماء فتمتصه ، وبعد جذبها يعصر الماء منها فـي الفم مباشرة .. وكثيرا ما تحدث الوفيات في البادية بسبب العطش ، ومنها ما يكون عند البئر ، وقد شق على الميت الشرب منها .

وما دامت البئر تحتل حيزا كبيرا في حياة البدو ، فمن الطبيعي ان تحاك حولها القصص وتقال فيهـا الازجال والمواويل ، وتنظـم الاشعار ، وتؤلف الامثال ... وقد سرد الاستاذ العياش طائفة من هذه الاغاني الشعبية التي يرددها الاعراب عند الورود ، وفي المناسبات ، وتوصل منها الى البئر في الغناء الاذاعي ، فعدد المطربين الذين يتغنون بالبئر ، كوديع الصافي وصباح ، وسلوى حداد .

واذا ذكر الشعر العامي ، فلا بد ان يتطرق الـى الفصيح ، وخاصة شعر عنترة الذي يقول :

يدعون عنتـر والرماح كأنها اشطان بئـر فـي لبنان الادهم

وقصيدة العباس بن الاحنف مشهورة في من اخطأ الطريق فـي البادية ، واجهده العطش ، حتى اذا اهتدى الى بئر عميقة لم يجـد حبلا ، فدلى عمامته ، فلما رويت هوت !

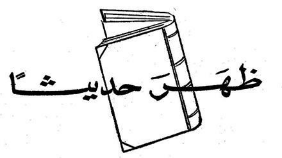
ان المجال يضيق عن اختصار جميع الفصول ، وحسبي ان اعرض عناوينها فقط ، فبعد البئر في الشعر ، ذكر البئر في كليلة ودمنة ، في القصص القديم ، في تاريخ العرب ، في الامثال الفصيحة ، فـي الامثال الشعبية ، في الحديث ، في الفقه ، في المعتقدات ، فـي الصيد ، في القصص الشعبية ، في قصص القرآن ، واخيرا فـي ريف الفرات .

هذا الفصل الاخير يستحق ان نقف عنده وقفة سريعة ، لانـه ذيله بملاحظة احب ان انقلها بنصها ، لان مجلة كالاديب تنشرها على

نطاق اوسع من نطاق الكتاب . يقول في الصفحة ٧٧ : « اعترف اني لم أوف الموضوع ما ينبغي له من الاحاطة والتعمق وحسن الطباعة والاخراج ، لاني اطبعه بدير الزور مضطرا على نفقتي ، ودون ان اكون متفرغا ، وليس للموضوع رواج في السوق على اهميته . ومع ذلك اوالي من سنين طبع كتبي عن الفرات « الموسوعة الفراتية » دون اية مساعدة من اية جهة . ان وزارة الثقافة لم تطبع كتابا واحدا عن الفرات ، كما لو كان غير هام . او ليس من بلادنا ، بالوقت الذي تطبع كتبا عن (أرض السحر) ـ الولايات المتحدة الاميركية . وعن (اساطير المكسيك) ، وعشرات الكتب ، ومجلة نشرت مقالا واحدا عن الفرات استكتبتني اياه عام ١٩٦٢ ، وكذلك لم يصدر في سورية كلها كتاب واحد عن الفرات » .

والمؤلف يملك كل الحق في ان يعتب على الوزارة لتقصيرها بنشر مؤلفاته التي اودعها خلاصة معرفته عن وادي الفرات ، في حين يتحمل كل العناء ليخرجها الى الناس بشكل طبعات شعبية مقروءة .

اللاذقية — عيسى فتوح



- الامومة والبيولوجيا ـ تاليف جان روستان ـ ترجمة الدكتور عدنان التكريتي استاذ مساعد في كلية الطب بجامعة دمشق ـ ١٠٢ صفحة ـ حجم كبير ـ سلسلة مكتبة الفكر الجامعي ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- الرؤيا وقصص اخرى ـ مجموعة قصص ـ تاليف جان زكي سالمة ـ الغلاف بريشة جميل شموط ـ ١٩٤ صفحة ـ منشورات دار الريحاني للطباعة والنشر ببيروت ـ مطابع دار الريحاني ببيروت .
- نظير زيتون .. الانسان ـ جمعه وقدم له عدنان الداعوق ـ اشرف على طبعه عبد المعين الملوحي ـ ١٩٢ صفحة ـ منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي في دمشق ـ مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي بدمشق .
- صور من ردود الفعل لاحد افراد العالم الثالث ـ مجموعة شعرية ـ الدكتور خليل النعيمي ـ ١٢٠ صفحة ـ منشورات دار الكندي بدمشق ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .
- رحلت عني ـ مجموعة قصص ـ تاليف حازم مراد ـ الصور بريشة مقبل رزق الله ـ ١٤٢ صفحة ـ مطابع دار البصري ببغداد .
- بحيرة العطش ـ مجموعة شعرية ـ حسن عبد الله القرشي ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .
- لن يضيع الغد ـ مجموعة شعرية ـ حسن عبدالله القرشي ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .
- احلام في النهار : قصص اسطوري عربي ـ تاليف الدكتور ميشال سليمان ـ الغلاف بريشة الفنان ز. كايا ـ ١٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ طبع في بيروت (لم يذكر اسم المطبعة) .
- ابن مقرب .. حياته وشعره ـ تاليف عمران محمد العمران ـ ١٨٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع الرياض بالرياض .
- رحلت عني ـ مجموعة قصص ـ تاليف حازم مراد ـ الصور بريشة الفنان مقبل رزق الله ـ ١٤٤ صفحة ـ مطابع دار البصري ببغداد .
- ذكريات ساخنة ، خاطفة وواقعية ـ تاليف أحمد غربية ـ ١٣٦ صفحة ـ منشورات مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)
- المحنة الوجودية ـ تاليف احمد حازم يحيى ـ ١٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ عدد شوال ١٣٨٨ من مجلة العرفان بصيدا ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .
- الملكة زنوبيا ـ مسرحية شعرية من اربعة فصول ـ تاليف عدنان مردم بك ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- حجر الحب وقصائد الفرح ـ شعر ـ جورج غانم ـ الرسوم واللوحات بريشة رفيق شرف ـ ١٢٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة فؤاد بيبان وشركاؤه بجونية لبنان .
- الرحيل ـ مجموعة قصص ـ تاليف خضير عبد الامير ـ ٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات وزارة الثقافة ببغداد ـ الكتاب ٨ في سلسلة القصة والمسرحية ـ مطابع المؤسسة العامة للصحافة والطباعة دار الجمهورية ببغداد .
- من اغاني المطر ـ مجموعة شعرية ـ منذر لطفي ـ الغلاف بريشة نعيم اسماعيل ـ ١٧٦ صفحة ـ منشورات دار الثقافة بدمشق ـ مطبعة الثبات بدمشق .
- اضاميم الاصيل ـ مجموعة شعرية ـ حامد حسن ـ الغلاف بريشة نعيم اسماعيل ١٦٠ صفحة ـ منشورات دار الثقافة بدمشق ـ مطبعة الثبات بدمشق .
- الليل والمطر ـ قصص قصيرة ـ تاليف وديع ملحم العريضي ـ تقديم يونس الابن ـ الغلاف بريشة جميل نصار ملاعب ـ ١٦٠ صفحة ـ مطبعة ستاركو ببيروت .
- امثال دير الزور حاضرة وادي الفرات ـ تاليف المحامي عبدالقادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في سورية ـ ٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ٢٣ في سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات ـ طبع في دير الزور بسورية .
- الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر ـ تاليف جان فال ـ ترجمة الاب مارون خوري ـ ١٩٢ صفحة ـ حجم كبير ـ سلسلة مكتبة الفكر الجامعي ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع دار الابجدية ببيروت .
- صحافة العراق ، تاريخها وكفاح اجيالها ـ تاليف فائق بطي ـ مصمم الغلاف جودت حسيب ـ ٢٣٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الاديب البغدادية ببغداد .
- اغانينا الشعبية في الضفة الغربية من الاردن ـ تاليف نمر سرحان ـ تقديم محمود العابدي ـ الرسوم بريشة الفنانين جلال الرفاعي ونمر حجاب ـ ٣١٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دائرة الثقافة والفنون بوزارة الثقافة والاعلام الاردنية ـ جمعية عمال المطابع التعاونية بعمان .
- اغاريد الفجر ـ ديوان شعر ـ الدكتور أديب سركيس استاذ الكيمياء في الجامعة الامريكية ببيروت ـ تقديم موسى سليمان ـ ١٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة راس بيروت ببيروت ـ مطابع الخال اخوان وشركاهم ببيروت .